

الدكتور عبد الحليم محمود

العارف بالله

بَشِيرٌ مِنَ الْجَارِثِ الْخَافِي



دار المعارف

الإمام عبدالحليم محمود

العارف بالله

بُشَيْرُ الْحَارِثِ الْخَافِي



دار المعارف

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام
على أشرف المرسلين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن اتبع هديه
إلى يوم الدين .

اللهم صل على خير خلقك ، سيدنا محمد ، الذي بلغ الرسالة ،
وأدى الأمانة ، وناضل طيلة حياته في سبيل : « لا إله إلا الله قولاً
وتصديقاً ، وفي سبيلها شعوراً وحالاً ، حتى أخرج بها أمة - في
صدر الإسلام - هي خير أمة أخرجت للناس ، تربت على : لا إله
إلا الله ربها عليها الإنسان الكامل الذي امتزجت به « لا إله إلا الله » ،
فكانت القائد له في كل تصرفاته ، ووقف بها صامداً في وجه كل
طغيان ، وفي وجه كل ضعف ، وفي وجه كل عقبة ، وانتهت به إلى
الفلاح الكامل ، والنصر المبين ، ﷺ - وما زالت « لا إله إلا الله »
ولن تزال ، تقبض بالنور والقوة على كل من آمن بها فرداً أو جماعة .

وما زالت - ولن تزال - تخرج رجالاً هم خير رجال أخرجوا
للناس ، وتخرج جماعات - إذا أشربوا روحها - هم خير جماعات
أخرجت للناس .

وما من شك في أنه ليس خير الجماعات هم الذين بيدهم الحديد
والنار ، وبيدهم التنكيل والغلبة والتعذيب .

كلا وحاشا ، وإن هذه الدول فى أوربا وأمريكا التى سيطرت
وسادت بقتالها ومدافعها ، فأشقت الإنسانية ، ودمرت البلاد والعباد ،
وخربت الأنفس والأجسام ...

إن هذه الدول باعتراف أهلها تصور الإنسانية أسوأ تصوير ، إنها
عدوة - فى جبروتها - للحق والخير والسلام ، عدوة للفضيلة والخلق
الكريم .

ومهما وصلت من القوة ، ومهما بلغت فى غزو الفضاء ، وفى
استخدام الأقمار الصناعية للتجسس ، فإن كل ذلك لا يجعل منها أمة
فضيلة وخير .

ونحن لا نعادى التقدم العلمى ، كلا ، إنما على العكس ندعو إليه ،
ونوجهه فى أمنا النامية ، ولكن التقدم العلمى إذا لم يصاحبه زيادة
الشعور بالفضيلة والخير يصبح جبروتا وطغيانا .

وفرق بين التقدم العلمى الذى يرافقه الإيمان بالخير والفضيلة فيشعر
السلام والأمن والاطمئنان ، والتقدم العلمى الذى لا يهدف إلا إلى
الغلبة والاستعلاء ، فيشعر الخراب والدمار ..

إن هؤلاء الذين بهرتهم الحضارة الغربية قد عموا عن أمرين فى
غاية الأهمية : الأمر الأول : هو أن هذه الحضارة فى جانبها المادى
أشقت الإنسانية بهذه الوسائل المهلكة المدمرة المخربة التى استخدمت
بين أقطار مختلفة من أهل دين واحد هو المسيحية ، واستخدمت فى
أبشع صورة ضد أم ضعيفة للسيطرة عليها ، ووضعها فى وضع أشبه

ما يكون بالرق ، إن لم يكن هو الرق نفسه ، ومن أجل هذه الصورة الواقعية لعن كثير من الأوربيين حضارتهم وتمنوا زوالها .

أما الأمر الثاني الذى عصى عنه من بهرتهم الحضارة الغربية ، فهو أنها فى جانبها الثقافى النظرى متغيرة باستمرار ، ظنية لا مسيل فيها إلى اليقين .

إن مثلها فى هذا الجانب - كما يقول المرحوم الشيخ محمد مصطفى المراغى - كمثل أزياء النساء تتبدل كل عام .

إنها لا تثبت على رأى ، ولا تستقر على مبدأ ، ولا تجمع على كلمة ، وهى فى ماضيها وحاضرها متعارضة متضاربة متناقضة ، وجديدها قديم ، وقديمها حديث ، وهى متهافة لاحالة ، وخذ أى رأى منها إن شئت ، فإنك ستجد ، دون أدنى ريب ، فيها نقسها مايعارضه وينقضه ، فإذا ما علق إنسان أمله بها فإنه لاحالة يعلقه على سراب .

ولقد تعددت جماعة كبيرة إفساد هذه الثقافة النظرية الغربية وتزييفها ، ووضعت لذلك تخطيطاً محكماً تعمل على تحقيقه خطوة فخطوة .

هذه الجماعة هم اليهود الذين رسموا لإفساد الإنسانية منهجاً أخذوا فى تنفيذه عن طريق وسائل الإعلام ودور النشر ، وعن طريق المسرح والسينما ، عن طريق كل كاتب مأجور ، وكل كاتب مغفل .

بل لقد وصل الأمر باليهود إلى درجة أن رسموا فى تخطيطهم الاستيلاء على كراسى علم النفس ، وعلم الاجتماع فى جامعات أوروبا

وأمریکا ، وذلك ليفسدوا - عن طريق هذين العلمين - على الناس عقائدهم وأخلاقهم ..

ولقد نقلوا مخططهم فامتدوا على ما يقرب من ٩٠ في المائة من هذه الكراسي ، وأصبح من الدراسة الجوهرية في هذين العلمين موضوعات :

أصل الدين .

مصدر الوحي .

كيف نشأت الأخلاق .

مرد الأخلاق .

التفسير النفسي للوحي .

التفسير النفسي لعقيدة الألوهية .

التفسير الاجتماعي لعقيدة الألوهية .

التفسير النفسي للأخلاق .

التفسير الاجتماعي للأخلاق .

وهم في دراستهم لهذه الموضوعات يرجعونها كلها إما إلى الفرد وإما إلى المجتمع .

أما أن يردوها إلى الله فلا .

والشرقيون يرسلون أبناءهم ليتعلموا هذا الإلحاد ، ثم ليسرخوا به عند عودتهم في أقطارهم .

والغريب أن الشرقيين يؤمنون بهذا الباطل ، وينشروته في أقطارهم
ليفسدوها ، وهم بذلك أبقوا لليهود ، دعاة لهم عن سداجة وعن
غفلة .

ولقد أعلن اليهود في الكتاب الذي يصورهم ويصور مخططهم
في دقة ، وهو كتاب « بروتوكولات حكماء صهيون » أنهم يعملون
جاهدين لإفساد الضمائر عن طريق التشكيك في الأخلاق والعقائد ،
ويعملون جاهدين لإفساد العقول عن طريق تزييف الحق وترويج
الباطل ، ويتبنون شخصيات إبليسية تفسد آراؤها على الناس ضمائرهم
وعقولهم .

إنهم يعلنون أنهم تبنا آراء اليهودي « فرويد » الذي يفسر كل
شيء في سلوك الإنسان عن طريق الغريزة الجنسية .

وإنهم تبنا آراء اليهودي « كارل ماركس » الذي أفسد على الكثيرين
قلوبهم وضمائرهم وعقولهم ، وألغى الأديان ، وهاجم عقيدة الألوهية ،
ولما قيل له :

ما هو البديل عن عقيدة الألوهية ؟

قال : البديل هو المسرح ، اشغلوهم عن هذه العقيدة بالمسرح .

وصدق في هذا اليهودي قول الله تعالى :

﴿ واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان
من الغارين ، ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه
فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ، ذلك مثل
٧

القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلهم يتفكرون ، ساء مثلاً
القوم الذين كذبوا بآياتنا وأنفسهم كانوا يظلمون ، من يهد الله فهو
المهتدى ومن يضلل فأولئك هم الخاسرون ﴿١٧٥-١٧٨﴾. الأعراف [١٧٥-١٧٨].
وتبنوا آراء « نيتشه » الذى ألغى الأخلاق ، وأباح لكل إنسان أن
يفعل ما يؤدي إلى استمتاعه ولو كان القتل أو إسالة الدماء أو التخريب .
وتبنوا آراء « دارون » : هذا المهرج الكبير الذى يعلن عن نظرية
ينقصها الإثبات ، ويقول هو :

إن حلقة مفقودة في هذه النظرية يجب أن نبحث عنها ، وإلى أن
نجدها يجب مع ذلك أن نؤمن بالنظرية كحقيقة ، مع أنها لا تثبت
إلا بالحلقة المفقودة التى يبحث الباحثون عنها فى شرق الدنيا وغربها فلم
يجدوا لها أثراً .

ولقد راج هذا التهريج ، روجه اليهود بأخلاقهم وكتبهم وصحفهم
وأستاذتهم فى علم النفس وفى علم الاجتماع ، الذين احتلوا - بحسب
تخطيط مرسوم - ٩٠ فى المائة من كراسى هذين العلمين فى جامعات
أوروبا وأمريكا .

إن اليهود ألوا على أنفسهم أن يتبنوا كل باطل من الآراء الفكرية فى
مجال ما وراء الطبيعة ، وفى مجال الأخلاق ، ليفسدوا العالم ،
وليتحكموا من وراء ذلك من السيطرة عليه ، ومن قيادته واستعباده .
وهم الذين قالوا :

﴿ ليس علينا فى الأميين سبيل ﴾^(١) .

(١) آل عمران : ٧٥ .

إن القسم الثقافي النظري من الحضارة الغربية قسم ظني وسيستمر ظنيًا إلى الأبد ..

وإذا تساءلت عما يمكن أن يسير الإنسان على هديه في هذا المجال ، فإنه - في غير لبس ولا غموض ولا إيهام - الوحي الحمدي المعصوم . إنه الوحي الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد : من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله .

« إنه جبل الله المتين ، والصراط المستقيم » .
ومادام الإنسان مؤمنًا فهو لا محالة يؤمن بأن (الدين نزل هاديًا للعقل) .
إن هذه القضية جزء من إيمان كل مؤمن ، ومادام الدين نزل هاديًا للعقل فإنه لابد للعقل من أن يجعله القائد والهادي والحكم .
وإذا فعل المؤمن ذلك فإنه يكون قد اعتصم بالعصمة التامة فإذا اعتصم بها هدى إلى صراط مستقيم .

وإننا بكتابنا عن الشخصيات الصوفية فإنما نقدم للأمة الإسلامية نماذج من أشخاص لم يهرهم بريق الثقافات الغربية - وقد ترجمت على عهدهم .

وإنما كان منهجهم في الحياة الاتباع لا الابتداع ، وساروا في طريقهم متأسين برسول الله ﷺ ، فسعدوا وأسعدوا .

وإن من أئمتهم في ذلك بشرين الحارث الحافي الذي تقدمه اليوم ، ونرجو الله سبحانه أن يجعل في سيرته هداية وإرشادًا ، وأن يهدي سبحانه لهذا الكتاب وأن يهدي به ، إنه سميع قريب مجيب .

الفصل الأول حياته

بسم الله الرحمن الرحيم - الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن اتبع هديه إلى يوم الدين .

﴿ربنا آتانا من لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾^(١) .

وبعد : فيقول محمد بن الصلت عن بشر بن الحارث
« كان اسمه بين الناس كأنه اسم نبي » .

وبماسبة هذه الكلمة لابن الصلت نورد هنا ما قاله عالم الصوفية وصوفي العلماء الإمام الكبير ابن عطاء الله السكندري في موضوع الثبوة والرسالة ، إنه يقول :

قال عليه السلام : « العلماء ورثة الأنبياء » . وقال عليه السلام : « إن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً وإنما ورثوا العلم » ، وقال عليه السلام : « علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل » .

وهها نكتة وهو أنه عليه السلام لم يقل علماء أمتي كرسس بني إسرائيل ، ففس الناس من ظن أن السبي هو الذي سبى في نفسه والرسول هو

(١) الكهف : ١٠٤ .

الذي أرسل إلى غيره ، وليس الأمر كما ظن هذا القاتل ، ولو كان كذلك
فلماذا حص الأسياء دون الرسل بادكر هي قومه .
« علماء أمتي كآسياء بني إسرائيل » .

وما يدلك على بطلان هذا المذهب قول الله سبحانه .

﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي ﴾ ^(١) الآية ، فدل على
أن حكم الإرسال يعمهما ، وبما الفرق ما قال بعض أهل العلم . إن
الشي لا يأتي بشريعة جديدة ، إنما يحيى مقررًا لشريعة موسى ، وأمرًا
بالعمل بما في التوراة ، ولم يأت بشرع جديد ، والرسول كموسى
عنه السلام إذ أتى بشرع جديد وهو ما تضمنته التوراة ، فقال ﷺ :
« علماء أمتي كآسياء بني إسرائيل » ، أي يأتون مقررين ومؤكدين
وأمرين بما جئت به ، لأنهم يأتون بشرع جديد

وكان شر مقررًا ومؤكدًا وأمرًا بما جاء به الرسول ﷺ ، ومن
هذا كان اسمه كآنه اسم نبي .

على أن كلمة « كآنه » ترشد إلى أن بشرًا كان مستقيم السبوك ،
منعًا للحادة ، متحدًا الرسول ﷺ سوة وقدوة

ويقول إبراهيم الخري عنده :

« ما أحرحت بعداد أئم عتلاً ، ولا أحفظ للسنة ، من بشرين
أحارث ، كان له في كل شعره منه عقل ، ووظي الناس عقبه خمسين

(١) سورة الحج الآية : ٥٢

سعة ، ما عرفت له عية مسلم ، لو قسم عقله على أهل بغداد لعماروا عقلاء وما يقص من عقله شيء^(١) .

ويقول أبو بكر الحطيب :

وكان من نافع أهل عصره بالورع والرهبة ، وصرده بوفر العقل ، وأنواع الفضل ، وحسن الطريقة ، واستقامة المذهب ، وإسقاط الفضول .

ولكن : من هو بشر ؟ وكيف كانت حياته ؟

يقول أبو عبد الرحمن السلمى عنه :

بشر بن الحارث - المعروف بالحافي كنيته أبو نصر ،

أصله من مرو ، من قرية : مايرسام ،

وكان من أبناء الرؤساء والكتبة ،

ويقصد بالكتبة هؤلاء الذين يعملون في القصر الملكي ، وكانت لهم صولة خاصة ، فهم مؤتمنون على الأسرار ، وهم الذين يعاونون الوزير وكانت أمور الدولة كلها بيد وزير واحد - في تصريف الأمور ، وكانت مطمحهم - في التقرب من الوزير ثم من أمير المؤمنين

وكانوا يعيشون في سعة من لرق ، وفي تقدير ما شيء عن مكانتهم من السلطان ، كان والد بشر من هؤلاء .

(١) ابن عساکر ص ٥١

ويقول الإمام الماوى عن بشر :

« وأصله من رؤساء مرو » .

ونشأ بشر نشأة أولاد الذوات ، يروى صاحب الحلية أنه : « كان فى ابتدائه فى هو ولعب » .

يجلس مع ارفقاء للهو واللعب ، ويقضون أوقاتهم فى ترف ونعيم .
ولكن الله سبحانه أعد فى أثره لشر مرة كريمة ، وهى الأسباب
لوصوله إليها ، والله سبحانه يحتسب من يشاء ويهدى إليه من ييب .
ويقول سادتنا الصوفية « فى شحة تقع الصلحة » .
وفيما نحفظ :

ما بين طرفة عين واتماهنها يعبر الله من حال إلى حال
وربيت الأقدار أمرين متلاحقين لا يدري - فى صورة من اليقين -
أيهما سبق الآخر ، ولكهما - فيما يرى - متقاربان لا يكاد يفصل
بينهما فاصل .

وأولهما : وهو - فيما نظن - السابق ، يرويه صاحب الحلية كما يلى :
وكان أسفل قدمه أسود من التراب من كثرة المشى حافياً ، وسبب
حفاؤه أنه كان فى ابتدائه فى هو ولعب ، فجلس مع رفقاءه لذلك ، فدق
رجل بيه ، فخرجت الحاربه ، فقال : صاحب هذه الدار حر أم عبد؟
قالت : حر .

قال : صدقت ، لو كان عبداً لاستعمل أدب العبودية وترك اللهو ،
ثم ولى .

فدخلت الجارية فأخبرته :

فخرج يعدو خلفه حافياً حتى أدركه وقال : أعد الكلام ، فأعاده ،
فهام على وجهه حافياً حتى عرف بالخفاء

فقال : ما صالحى مولاي إلا وأنا حاف ، فلا أزول عن هذه
الحالة .

كانت هذه حالة انتفاضة من الأعماق لها مشيلاتها فى التاريخ ،
وأقرب الشبه بها انتفاضة إبراهيم بن أدهم رضى الله عنه التى أخرجه
هو الآخر من حياة اللهر واللعب ، والترف والمجون ، إلى حياة تتجه
بكل كيانه إلى الله تعالى ، عاملة على مرضاته

لقد بدأ هو الآخر فى حياة مترفة : حياة أبناء الملوك والأمراء ، ثم
اجتنبه الله تعالى .

وهؤلاء الذين يحتبهم الله سبحانه تتلبهم فى أيام لهمهم هترات
أسف على ما هم فيه ، ولكنها لا تكون من انقوة بحيث تخرجهم عما
هم فيه ، وإن كانت تعص عيبتهم ملذاتهم لحظة عابرة ثم تنتهى ،
ويعودون لمثلها ويعبرونها .

حتى إذا ما جاء اليوم الموفوت كانت الانتفاضة التى تقتلع من
الأعماق كل ما يصرف عن الله . فتكون التوبة الصادقة - وفى لحظة -
تنقل الإنسان من دن لمعصية إلى عز الطاعة ، ومن مقت الله إلى
مرضاته ، ومن قنق المذب إلى طمأنينة الطائع .

وحدثت هذه الانتفاضة لشر كما حدثت لعشرات من مئات من
الأعلام ومن العامة .

وتحدث التاريخ عن بعضها وأكثرها الكثير مر في صمت .

وتختلف أسباب هذه الانتفاضات ، ولكنها عدة تحدث لمن لم تحط
به الخطيئة والعيذ بالله ، وإحاطة الخطيئة مانع من التوبة والإبادة ،
وإحاطة الخطيئة تحدث هؤلاء الذين يعمسون في الرديلة فيظلم قلوبهم
شيئاً فشيئاً حتى نعم الظلمة القلب ، وعيهم يقول الله تعالى :

﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾^(١)

ويكسبون لها معها ما كانوا يعملون من الأعمال التي لا ترضى
الله سبحانه .

ويقول تعالى : ﴿ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ
أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾^(٢) .

و « كسب » بمعنى أتى وعمل واقترب .

يعمل الإنسان الدب فيترك في قلبه نقطة سوداء ، فإذا ناب بوبة
صادقة زات لنقطة السوداء ، أما إذا لم ينب فإن هذه النقطة السوداء
في القلب تسهل لسيئة الثاني ، وتسهل السيئة الثانية السيئة الثالثة .
وهكذا .. تتحاور النقطة السوداء في القلب ، فإذا غمت الظلمة القلب
فذلك إحاطة الخطيئة ، ومن أحاطت به خطيئته فهو في النار حالداً

(١) المطففين ١٤ .

(٢) البقرة ٨١ .

فيها : أى إنه فى مقت الله فى حياته . وفى مقتته بعد مماته ، يعود بالله من ذلك .

وأدركت عناية الله بشر بن الحارث ، فخرج بانتعاضته من ذنوبه كيوم ولدته أمه

ونعود فنقول إن لمقادير رست أمري ، ذكرنا أحدهما وهو الذى كان السبب فى أن يستمر - حياته - خافياً .

ومن طرائف ما يروى بشر فى ذلك ما يلى حسماً يروى ابن عساکر .

سمع بشر بن الحارث يقول :

أتيت باب المعافى بن عمران ، فدفقت الباب ، فقبل لى . من ؟ فقلت : بشر الحافى ،

فقال لى بية من داخل الدار . و اشتريت نعلان بدانقين ، ذهب عنك اسم الحافى ،

ولكنه لم يشر العمل ، واستمر - كما يقول - على الحالة التى صالحه مولاه عليها ،

أما لأمر الثانى فهو أنه كان يسير ذات يوم فإد هو بقرطاس فى الطريق . يقول بشر : فرفعته ، فإذا فيه :

بسم الله الرحمن الرحيم

فمسحته وجعلته فى حصى ، وكان عندى درهمان ، كنت أملك غيرهما ، فدعيت إلى العطارين فاشتريت بهما عالية ومسحته فى القرطاس ، فمست تلك الليلة فرأيت فى امام كأأن قائلاً يقول لى

يا بشر بن الحارث ، رفعت اسمنا عن الطريق وعليتك ، لأطمين اسمك
في الدنيا والآخرة ، ثم كان ما كان

ولعل المقادير شاءت أن تتكاتف مجموعة من الأسباب التوجيهية
تنص بذلك إلى غيبتها ، وذلك أنه يبدو أن رؤيا أخرى رُئت لبشر ،
يرويهما لمؤرخون عن سبب توبته ، وهي كما يلي حسبما يرويها المؤرخون :
كان سبب توبته أنه وجد قراطاً في أتون حمام فيه :

بسم الله الرحمن الرحيم

فعظم ذلك عليه ، ورفع طرفه إلى السماء وقال :

سبدي ، اسمك ها هنا ملقى .

فرفعه من الأرض ، وقلع عنه الشجاة الذي هو فيها ، وأتى عصاراً
اشتري بدرهم عالية لم يكن معه سواه ، ولطح تلك الشجاة بالغالية ،
فأدخله شق حائط ، وانصرف إلى زجاج وكان يحالسه ، فقال له الزجاج :
والله يا أخي لقد رأيت لك في هذه الليلة رؤيا ما رأيت أحسن
مها ، ولست أقول لك حتى تحدثني ما فعلت في هذه الأيام بينك
وبين الله ، فقال :

ما فعلت شيئاً أعلمه غير أنني اجتزت اليوم أتون حمام ، فذكره .
فقال الزجاج : رأيت كأن قاتلاً يقول في المنام .

قل لبشر : برفع اسم لنا من الأرض إجلالاً من أن تداس ، لننوهن
باسمك في الدنيا والآخرة .

لقد وضح الطريق أمام بشر :

ليس هناك ملجأ إلا الله ، وليس هناك طريق إلا طريق الله .

وأخذ بشر يبكي على ما مر من حياته في طوفان ولعب ، ولقد كان ذا طبيعة رقيقة ، وكانت الدموع تهطل لأية خطرة يضربها عدم رضا الله ، وكانت الدموع أيضاً تهطل فرحاً عندما يشرح الله صدره للعامة ، وبعبء سبحانه على السير في طريق القرب منه تعالى ، ويقول المورحون :
لقد بكى حتى ذهب أشعار عييه .

إنها رقة في القلب ، وشعور مرهف .

وهذه الرقة في القلب أساسها عاطفة الرحمة التي يمسحها الله للمختارين من عباده

وأنت أيما نلتفت فلن تجد في الماضي ، أو في الحاضر علامة ظاهرة في هؤلاء الذين اتخذوا طريق الله طريقاً أوضح من عاطفة الرحمة فيهم وأن الرحماء هم الذين يوجههم الله دائماً إلى طريقه .

ولقد كانت الرحمة من أبرر صفات رسول الله ﷺ ، وهي الحكمة الأصيلة في إرساله ﷺ ، يقول تعالى :

﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾^(١) .

(١) الأنياء : ١٠٧ .

ومن أجمل ما قل أسلافنا رسول الله عليهم بمناسبة هذه الآية
الكريمة أن الأنبياء والرسل والصالحين من عباد الله يتصفون بالرحمة ،
أما رسولنا ﷺ فهو عين الرحمة .

وهذه الكلمة تصف رسول الله ﷺ بوصف من أحص صفاته ﷺ .
ويقول رسول الله ﷺ :

« لا تنزع الرحمة إلا من قلب شقي » .

وإن من مظاهر اقرب من الله سبحانه أن يكون إلهاماً رحيمًا ،
ومن مظاهر البعد عن الله تعالى : فسوة القسب .

ويقول الله تعالى ﴿اعف عن الناس قلوبهم﴾^(١)

والرحماء يرحمهم الله :

« الراحمون يرحمهم الرحمن »

والرحمون لا يحريهم الله في الدنيا ولا في الآخرة .

كان بكاء بشر من مظاهر رحمته التي كان يتعجر بها قلبه .

وتغيرت حياة بشر منذ اللحظة الأولى لتوبته .

لقد نطع رفقاءه ، رفقاء اللهو واللعب ، واتجه في صدق إلى

تمضية وقته في مرصاة الله .. ولكن كيف ؟

لقد تعم في بوكير حيله سادى الأولى للعبادة ، ومارسها في

صورة تقليديه

ولكنه الآن يريد أن يتزم لدقة في العبادة ، ولا يكون ذلك إلا عن طريق العلم والمعرفة ، ثم إنه لا يثنى أن يكون في جو مرصاة الله تعالى إلا إذا عمل في هداية المجتمع .

إن الله سبحانه وتعالى وقد هباً له ظروف اهداية ، يقضيه ركة ذلك ، وزكاته هي هداية الآخرين .

وإذا أحب إنسان أن يقتدى برسول الله ﷺ ، فلن يكون ذلك بالاعتكاف في المسجد ، وترك الآثام والشور نحتاج المجتمع .

إن الله سبحانه وتعالى حينما وصف الأمة الإسلامية قال فيما قال : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ (١) .

ومما ط الحيرية إذن للأفراد والجماعات إنما هو الإيمان والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

ولن يكون الفرد حبراً - إذن إلا بشروط جوهرها الإيمان والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

وعن عاطفة الرحمة يتعبر الاتجاه إلى هديه الآخرين .

ولكن كيف ؟ لايد من العلم .. ؟

وحزم بشر أمره للترود من العلم

(١) آل عمران : ١١٠

والعدة للهداية في النص ولهدية المجتمع تتركز في دراسة الكتاب والسنة ، الكتاب حفظاً - في حدود الإمكان - ودراسة ، والسنة دراسة وفهماً واستغرافاً في جوها ، ومحاولة لأن يذيب الإنسان شخصيته في شخصية صاحبها .

وبداً بشر الطريق ، فتعلم في « مرو » ما قدمته مرو إليه ، ولعله لم يكن كثيراً ، ثم أخذ بشر في السياحة ، وإلا تعطيا المراجع التي بين أيدينا ترتيباً سياحاته ، ولكن يبدو أنه قل أن يستقر في بغداد أكثر من السياحة ، حتى إن بعض المؤرخين يصعبه فيقول فيما يقول .
إنه من :

العباد السائحين .

وكان السياحة أحد أوصافه الملازمة .

ويذكر ابن عساكر أن بشرًا :

« قدم الشام ، واجتاز جبل لبنان من أعمال دمشق » .

ولكن بغداد - يد ذاك كان بها تحقيق لآمال الطامعين في الدنيا ، وتحقيق لآمال من عدهم طسوح إلى الآخرة . لقد كان يحج إليها طلاب الدنيا والجاه والماصب ، ويحج إليها طلاب العلم : حديثاً وتفسيراً وفقهاً . ويحج إليها الصوفية للهداية والإرشاد . وكانت المفاطيس اقوى الحيد الذي يحذب جميع الطوائع من بني البشر . واستمر بها بشر : متعلماً متعلماً ، ثم معلماً مرشداً .

وكان علم الحديث منتشرًا دائمًا في بغداد إذ ذاك ، لقد بلغ فيه طائفة من العلماء لها شأنها ، وكان سفیان الثوري أمير المؤمنين في الحديث ، وكان مسنده يحتوي على ثلاثين ألف حديث ، ويقول - مع ذلك - : ما حدثت إلا بواحد من عشرة مما أحفظ .

وفي هذه الفترة كان يوجد الإمام الكبير أحمد بن حنبل ، والإمام المعافى بن عمران ، والإمام سفیان بن عيينة ، والجنيد ، وعشرات غيرهم ممن كانوا ورثة رسول الله ﷺ ، يقول رسول الله ﷺ : « العلماء ورثة الأنبياء ، وإن الأنبياء لم يورثوا دينارًا ولا درهمًا وإنما ورثوا العلم ، فمن أخذه أخذ بحظ وافر » .

ولقد سار هؤلاء على النهج الذي رسمه الإسلام بدعوة والدعاة ، وهذا النهج يمثل في آيات كثيرة من آيات كتاب الله سبحانه ، يقول تعالى :

﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ﴾

(يوسف ١٠٨) .

والبصيرة تنصم - فيما تنصم - العلم ، العلم كأدق ما يكون العلم ، إنه العلم على بصيرة وهدى .

ويذكر القرآن الكريم الدعاة فيقول - فيما يقول عنهم :

﴿ الَّذِينَ يَلْفُوفُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَ وَلَا يَحْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَمِيلًا ﴾
(الأحراب ٣٩)

وهؤلاء كما اعترفوا من ميراث رسول الله ﷺ فإنهم تأسوا به في
علاقتهم بالله .

إبهم ينفون رسالته على علم ، ويحشونه وحده ولا يحشون غيره ،
لأن غيره لم يحقوا ذنباً ولو اجتمعوا له ، بل إنه حينما يسلمهم
الدياب شيئاً لا يستفدوه منه ضعف الصالب والمطلوب

إنه سبحانه وحده النافع لصار ، المانع المعطى ، بيده الآجال ،
وعنده خزائن الرزق ، وحرثن الرحمة . وحرثن السعة ، وليه يرجع
الأمر كله .

أما أسلوب الدعوة إليهم كانوا يتبعون في ذلك قول الحكيم الخبير :
﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وحادلهم بالتي هي
أحسن ﴾ (النحل ١٢٥) .

سافر بشر إلى بغداد والقي فيها بكثير من أهل العلم وأهل
الدعوة ، لقد اتقى هؤلاء الدين كانت أسمائهم كأنها أسماء أنبياء ..

الفصل الثاني العالم

(أ) العلم في الجو الصوفي

إن كثيراً من الناس في عصرنا الراهن يخافون - ما استطاع - أن يقل من اهتمام الصوفية بالنسبة للعلم ، وربما وجد مسداً في بعض الأوضاع التي لم تأخذ شكلها الصادق في عصرنا الراهن .

وبعض الأحياء التي تنسب إلى التصوف قد تعطي شيئاً من لمطوق المزيف لأعداء التصوف ، ليحاولوا التقليل من شأن الاهتمام العلمي عند الصوفية .

والواقع أن العلم في الدائرة الصوفية هو العلم بمعناه الإسلامي ، أي العلم بالصحة ، والعلم بما وراء الطبيعة !

إنه العلم بالأخلاق وبالفضيلة ، وهو العلم بالنواميس الإلهية السارية في الكون التي يكتشفها علم التشريح ، أو علم الطبيعة ، أو علم الفلك ، أو غير ذلك ، وإذا كانت الحقيقة تسهر عن قناعها بالأمثلة ، فإننا نبدأ بمن قال عنه القشيري :

« سيد هذه الطائفة وإمامهم »

إنه الجنيد .

لقد كان يقيها يفتى في حلقة أستاذه ومحضرته ، وهو ابن عشرين سنة ، وتأمل ما قاله القدماء عن درسه :

لقد كان الكتبة « الأدباء » يحضرون مجلسه لألفاظه .

وكان الفقهاء يحضرون مجلسه لتقريره ،

والفلاسفة يحضرون مجلسه لدقة نظره ومعانيه ،

أما المتكلمون فكانوا يحضرون مجلسه لتحقيقه .

وكان الصوفية من قبل هؤلاء ومن بعدهم يحضرون مجلسه لإشاراته وحقائقه .

وفقد حضر أبو الحسين علي بن إبراهيم الحداد يوماً مجلس القاضي « أبي العباس بن شريح » فسمعه يتكلم في الفروع والأصول (أى فى علم الفقه ، وفى علم التوحيد) بكلام حسن .

يقول أبو الحسن فعجبت منه ، فلما رأى إعجابى قال : أتدرى من أين هذا ؟

قلت : يقول به القاضي .

فقال هذا بركة مجالسة أبي القاسم الحنيد .

أما علم الحنيد نفسه ، فقد جاهد فى سبيل تحصيله المسين الطوال عن طريق الدرس والتحصيل ، وكان هذا الصريق الجانب الكسبي من عمله

أما الجانب الوهبي ، فإنه سئل - من أين ستقديت هذا العلم ؟

فقال : من جلوسى بين يدى الله ثلاثين سنة تحت تلك الدرجة !
وأوماً إلى درجة فى داره .

وقد حفظ الجيد القرآن ، وفهمه ودرسه وتدرسه ، وقيد الحديث
واستوعبه قدر الاستطاعة لفظاً ومعنى ، رواية ودراية ، وذلك أنه يرى
- كما يرى غيره من الصوفية - أن ذلك هو الأساس ، ولا بد من إحكام
الأساس ! وإحكام هذا الأساس يجعل من أحكامه فقيهاً ، ويجعله
محدثاً ، ويجعله مفسراً ، ويجعله من علماء الوحي ؟

ولقد أحكم الحنيد هذا الأساس قدر الاستطاعة :
أحكامه تبعاً ، وأحكامه استمارة ، وأحكامه لأنه صوفى ، وقال
فيما رواه القشيري :

« من م يحفظ القرآن ، ولم يكتب الحديث لا يقتدى به فى هذا
الشأن ، لأن علمنا مقيد بالكتاب والسنة » !
وقد كرر الحنيد رضى الله عنه هذا المعنى حتى ثبت فى أذهان
الصوفية !

يروى « الروذيرى » عن « الحنيد » أنه قال :
علمنا هذا مشيد بحديث رسول الله ﷺ .
ويكفى أن يتصفح الإنسان رسائل الحنيد رضى الله عنه ، ليشعر
أنه أمام عالم من أئمة علماء المسلمين .

والحنيد رضى الله عنه مثال الصوفى على ما ينبغي أن يكون ولم
يكن « الحنيد » ندماً فى عالم الصوفية ، فاستأذه « الحارث بن أسد

المحاسبى « لم يكن فى زمانه نظير له فى علمه ، ومؤلفاته كثيرة متنوعة ، وكلها فى مستوى سام ، حتى لقد كانت من المصادر الرئيسية التى أفادت الإمام العراقى وأثرت فيه .

وكتاب « الرعاية » للمحاسبى ، كتاب أديب عالم حجة !

وكتاب « فهم القرآن »^(١) كتاب لساحت الدقيق ، الذى يتخذ القرآن والسنة أساساً ، ويطلق منهما إلى بضعة حو العقائد ردّاً على المستدعة والمنحرفين .

ولقد حاول « دو النون المصرى » من قبل « الجيد » أن يكشف من معميات الكون ما خفى على الكثيرين .

لقد كانت له جولات فى عام الكيمياء ، وأسرار الطبيعة ، ولقد حاول أن يكشف أسرار علم قدماء المصريين ، وأن يقرأ كتاباتهم ويتمهم لغتهم !

لقد كان يحب اكتناء العاصم ، ويحاول أن يزيل القناع عن المحجوب فضلاً عن شعاره الدائم ، وهو القرآن الكريم ، وسنة رسول رب العالمين !

وهل نراك يا إمام لمشبرى وأنه فسر القرآن كما يفصره هـ وذاك من علماء ابعة ، وعمماء أسباب السوء ، وعملاء السوء وليلاعة .. وم يكن أقل من أى منهم فى علمهم وقلمهم .

(١) كان هـ الكتاب مفقوداً فكتبه تحقق الفاضل الأسناد حسون المولى وشربه بستان فى طبعة محكمة جميلة

وأنه لم يكتف بذلك ، وإنما ألف في تفسير القرآن : « لثائف
الإشارات » فكان إلهاما من الإلهامات ، وكان نوراً من الأنوار ، وم
يذكر فيه كل الإشارات وإنما ذكر فيه لطائفها ا

ولقد حاض الإمام العراقي بحار العلم وانعمس فيها ، ويعبر عن ذلك
بقوله :

« ولم أر في عنقوان شهابي - منذ راهمت السوع - قبل بدوع
العشرين إلى الآن ، وقد أبا الس على الحصين أقنحم لحة هذا
البحر العميق ، وأخوص عمرته حوص الجسور ، لا خوص الجبان
احدور ، أنوغل في كل مظلمة ، وأنهم على كل مشكلة ، وأنقحم
كل ورطة ، وأنقحص عن عقيدة كل فرقة ، وأنسكشف سرار مذهب
كل طائفة ، لأميز بين محق ومبطل ، ومتمس ومتدع .

لا أعادر باطلياً إلا وأحب أن أطلع على بطات

ولا ظاهرياً إلا وأريد أن أعلم حاصل ضهارته

ولا فلسفياً إلا وأقصد الوقوف على كنه فلسفته

ولا متكئاً إلا وأجتهد في الاصلاح على غاية كلامه ومجادته

ولا صوفيّاً إلا وأحرص على العثور على سر صوفيته .

ولا متعبدّاً إلا وأترصد ما يرجع إليه حاصل عبادته

ولا رديقاً معطلاً إلا وأنحس وراءه للتببيه لأسباب جرأته ، في

تعصيه وريدقته

وقد كان التعصب إلى درك حقائق الأمور دأبى ودينى من أول
أمرى ، وريعان عمرى ، غريزة وفطرة من الله وضعتا فى جبلتى
لا بالمختيارى وحيثى ، حتى انحلت عني رابطة التقليد ، وانكسرت
على العقائد الموروثة عني قرب عهد من انصا « أهـ .

أما الذى طوع مختلف العلوم ، وملتك ناصية المعرفة ، على مختلف
فروعها ، ووصل فيها إلى القمة ، لم يجاره فى ذلك فيسوف من
فلاسفة الغرب ، فإنه :

الشيخ الأكبر ، ميلنا بحى الدين !

نقد طوع المعرفة لفكره ، وطوعها لقلمه ، وبلغ فيها القمة ، وسمى
بحق : الشيخ الأكبر !

ولقد كان فى « فتوحاته » مفسراً خيراً من كثير من المفسرين ، وفقهياً
خيراً من كثير من الفقهاء ، وشارحاً للمحدث خيراً من كثير من شراحه ،
وفتوحاته كثر من لمعرفة لا ينعد ، ومعين من العلم لا ينضب !

إنه رشفة من بحار رسول الله ﷺ تسهم دائماً بنضرة منيعها !
والصوفية فى الحجب العلمى لا يكتفون بالحجاب الكسبى ، أى
جانب التعلم من الكتب ، وعلى أستاذة الكتب ولكنهم قرءوا فى
كتاب الله تعالى :

﴿ وَعَلَّمَناهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْماً ﴾^(١) .

فتعلقت بهم بهذا العلم اللدنى الذى هو من عند الله ، وتطلعت
مأنهم إلى هذا العلم اللدنى الذى هو من عند الله ، واتخذوا
الطريق إلى الله !

والطريق إليه رسمه الله سبحانه وتعالى فى كتابه العزيز ، وعلى لسان
رسوله الكريم ، إنه الجهاد فى سبيل الله : ﴿والذين جاهدوا فىنا
نهديهم سبلنا﴾^(١) وهو العمل بما علموا « من عمل بما علم ، ورثه
الله علم ما لم يعلم » وهو تحقيق العبودية لله سبحانه وتعالى ، ومن
تحقق بالعبودية لله ، كان الله سمعه وبصره « كنت سمعه الذى يسمع
به ، وبصره الذى يبصر به » ، وشعار الصوفية على وجه العموم فيما
يتعلق بالعلم ، هو شعار أستاذهم وقديوتهم وحييهم رسول الله ﷺ
لذى كان شعاره :

﴿رب زدنى علماً﴾ (طه ١١٤)

وإذا كان أهل الظاهر قد فرحوا بعلمهم الظاهر ، واكتفوا به ! فإن
الصوفية قد حصوا هذا العلم ولكنهم لم يكتفوا به !

لقد شاركوا علماء انظار فى علمهم ، ولكن علماء انظار لم
يشاركوهم فى إلهاماتهم وإشراقاتهم !

هل يذكر فى هذا المجال الإمام العراقي فى علمه الظاهر ، وفى
علمه الباطن ؟

هل يذكر القبط الكبير « أبا الحسن الشاذلى » ؟

(١) التكميل ٦٩٠

أَو القُطْب الكبير « أحمد الرفاعي » ؟
 أَر القُصْب الكبير « عبد القادر الجيلاني » ؟
 فِي علمهم الظاهر ، وعدمهم الباطن ؟
 « واشعرائي » الذي ساهم تقريباً في جميع فروع المعرفة الدينية ،
 أنساه في هذا المجال ؟
 إِنْ التصوف والعلم يؤلمان وحدة متحدة منذ أن بدأ التصوف !

(ب) صلوات بشر بعلماء عصره

أحمد بن حنبل وبشر بن الحارث

لقد اتفق بشر بن الحارث في تعداد الكثيرين من أعلامها ، ومهم :
 أحمد بن حنبل .

وإذا قيل في بشر : إِنْ سمع كأنه اسم نبي ، فإنه يمكن أن يقال
 في الإمام أحمد بن حنبل . إِنْ سمع كأنه اسم نبي ، لقد أحلص الإمام
 أحمد وجهه لله تعالى طيبة حياته ، وهب نفسه لله تعالى ، متعلماً لدين
 في مصادره الأصلية : القرآن الكريم ، والسنة النبوية الشريفة ، وبلغ
 به الأمر في السنة أن كتب هذا المسند العظيم الذي يشع نوراً في كل
 زمن ووقت .

وعند استعرق الإمام أحمد في جو السنة فصبعته بصبغة الاقتداء
 برسول الله ﷺ ، وطبعته بطابع التأسي برسول الله ﷺ في السير
 من أمره ، والعظيم منه

وقد أخذ الإمام أحمد بشر الأسوة برسول الله ﷺ ، ينشرها بعلمه ، وينشرها بسلوكه .

وعلى سنة رسول الله ﷺ تمسك الإمام أحمد بما يراه حقاً ، لم يجد في يوم من الأيام عن الحق ، وفي سبيل استقامته على الحق تحمس الكثير من الأذى في رضاء عن الله تام !

ولو شاء الإمام أحمد لئال من المناصب ما تتطلع إليه نفوس كثيرة ، ولكنه آثر الله سبحانه !

وكان الإمام أحمد في حرب دائمة مع كل من يراه منحرفاً عن الطريق الذي يراه الحق .

ولكنه كان مع الإمام « بشر بن الحارث » صديقاً ودوداً ، وكان مقدراً يعبر عن شعور واضح من الثقة والاحترام .

وقد ذكر « الحارثي » أن الإمام أحمد تتلمذ على بشر بن الحارث .

١ - ومما يروى عن الإمام « أحمد » فيما يتعلق برأيه في « بشر » ما رواه ابنه عبد الله بن أحمد بن حنبل قال : سمعت أبي يقول - وذكر بشر بن الحارث - فقال : « إني لأذكر به عامر بن عبد الله - يعني ابن عبد قيس » !

٢ - وروى عن محمد بن الحنفية قال : قلت لأحمد بن حنبل :

ما تقول في هذا الرجل ؟ فقال لي : أي الرجال ؟ فقلت له : بشر ، فقال : سألتني عن رابع سبعة من الأبدال ، وأما ابن عبد قيس ،

ما مثله عدى إلا مثل رجل ركب رجلاً في الأرض ثم وقف منه على
السان ، فهل ترك لأحد موصفاً يقف فيه ؟

٣ - ولما قيل لأبي عبد الله أحمد بن حنبل : مات بشر بن الحارث ،
قال : مات رحمه الله ، وماله نظير في هذه الأمة إلا عمر بن عبد قيس ،
فإن عامراً مات ولم يترك شيئاً ، وهذا قد مات ولم يترك شيئاً !
وسمعوا أحمد بن حنبل يقول : والله إن بين أظهركم لرجلاً ما هو
عدى بدون عامر بن عبد قيس - يعني بشر بن الحارث !

٤ - وتشبيه بشر بعامر بن عبد الله يذكره أيضاً يحيى ابن أكرم
فيقول : ما بلغنا عن عامر بن عبد قيس شيء إلا وفي بشر بن الحارث
مثله أو أكثر منه ، إلا أن يكون كان في قلب عامر شيء لم يكن في
قلب بشر مثله .

وكان عامر بن عام يقول : قلت لأحمد بن حنبل من أسأل ؟
قال : بشر بن الحارث .

ويعينا الآن ، ويعي القارئ معنا ، أن نتعرف على عامر بن عبد الله
حتى نلقى بعض الضوء على فكرة الإمام أحمد ، وفكرة الإمام يحيى بن
أكرم في هذا التشبيه .

يعول الإمام الشعماني عنه :

ومهم عامر بن عبد الله بن قيس - رضي الله تعالى عنه ورحمه -
كان رضي الله عنه يقول : لو أن الدنيا كانت لي بخدا فبرها ثم أمرني
الله تعالى بإخراجها كلها لأخرجتها بطيب نفس .

وكان يقول :

« لا أبالي حين أحببت الله عز وجل على أى حال أمسيت وأصحت »

وكان رضى الله عنه يقول :

« سددت عرفت الله تعالى لم أنحف سواه » .

وكان رضى الله عنه يقول :

« كم من شيء كنت أحسنه أود الآن أبى لا أحسنه ، وما يغنى عنى

ما أحسن من الخير إذا لم أعمل به » .

وكان إذا أعطى السائل الرغيف يقول :

« إني لأستحي أن يكون فى ميزانى أقل من الرغيف » .

وقيل له مرة : من هو خير منك ؟ فقال :

« من كان صحته تفكرًا ، وكلامه ذكرًا ، ومشيه تسيرًا ، فهذا خير منى ! »

وكان يقول : « ذكر الله شفاء ، وذكر غيره داء » .

وكان يقول « من جهل العبد أن يحاف على الناس من ذنوبهم ،

ويأمن هو على ذنوبه نفسه » .

وكان يطعم المجائين فيقول له الناس : إنهم لا يدرون الأكل ، فيقول :

« إن لم يكونوا يدرون فإن الله تعالى يدري ! »

وكان يقول فى قوله تعالى :

﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجًا ﴾^(١) أى من كل شيء ضاق على

الناس .

(١) الطلاق : ٢ .

وكان يقول « إذا مت فلا تغموا بي أحداً ، وسووا إلى ربي
سلاً » رضي الله عنه .

ويقول صاحب الخلية :

« وكان عامر بن عبد قيس ممن تخرج على أبي موسى الأشعري في
السك والتعب ، ومنه تلقى القرآن ، وعنه أخذ الطريقة » .

وقد توفي عامر بن قيس عام ٥٥ هجرية تقريباً في خلافة معاوية .
وإذا كان الإمام أحمد بن حنبل يقدر بشراً كل هذا التقدير ، فإن
بشراً يعترف اعترافاً صريحاً بمكانة الإمام أحمد بن حنبل ، ويقول :
فضل على « أحمد بن حنبل » بثلاث :

صحب الخلال نفسه ولغيره ، وأنا ضلله لنفسه فقط !

واتساعه في النكاح ، وضيقى عنه !

وكونه نصب إماماً للعامة .

بشر وسفيان الثوري

وفي بغداد التقى بشر يكتب بسفيان الثوري ، وتعلمد على آثار سفيان
الثوري ، وأعجب « بشر » أيعا إعجاب بسفيان ، وأحد يتبع أحوله
ويروى عنه . وكان سفيان جديراً بذلك ، فإنه من الشخصيات التي
كان اسمها كأنه اسم نبي أيضاً ..

لقد عاش طيبة حياته ماحلاً في سبيل الحق ، بعيداً عن أجواء النفاق ..

ولقد درس حديث رسول الله ﷺ دراسة مستفيضة ، ولقب لذلك : « أمير المؤمنين في الحديث » .

وعمل سفيان في التجارة ، واكتسب حياته بيده حتى لا تكون الوظيفة قيلاً بالنسبة لآرائه وإعلانه كلمة الحق .

ويقول عنه صاحب « نتائج الأفكار القدسية » :

هو سفيان بن سعيد الثوري ، كانوا يسمونه أمير المؤمنين في الحديث ، ولد سنة سبع وتسعين ، وخرج من الكوفة إلى البصرة سنة خمس وخمسين ومائة ، وتوفي بالبصرة سنة إحدى وستين ومائة .

وكان عام هذه الأمة وعابدها وراعلها ، وكان لا يعلم أحدا العلم حتى يتعلم الأدب ولو عشرين سنة .

وكان يقول: إذا فسد العلماء فمن بقى في الدنيا يصدقهم ، ثم يشد :

يا معشر العلماء يا ملح البلد ما يصلح الملح إذا الملح فسد

وكان سفيان المذكور - كما حكى عنه في الطبقات لصغرى : - إذا جلس لعلم وأعجبه مطلقه يقطع الكلام ويقول : « أخذت ونحن لا نشعر » .

أعجب بشر بسيرة سفيان ، فأحد يتبع ما ذكر عنه ، وبلغ به تقديره له أن كان يقول : إن علمه - كل علمه - إنما هو عن سفيان ..

إله يقول حرقيا: الذي أنا عبيد، بل كل الذي أنا عليه، جامع سفيان.

ومما رواه عن سفيان قوله :

قد جمعت مسائل سفيان الثوري ، وكان عنده قوم جلوس من أصحابه ، فقال : هوذا ، أدبر نفسي على أن أقرأ عليكم هذه المسائل ، فما أرى نفسي أهلاً للحديث .

وكان يقول :

يا طالب العلم ، إنما أنت متلذذ متفكك بالعلم ، تسمع وتحكى لا غير ، ولو عملت بما علمت لتجرعت مرارة العلم ، ويحك إنما يراد بالعلم العمل فاسمع يا أخي وتعلم ثم تعمل ، واهرب ، ألا ترى إلى سفيان الثوري رضي الله عنه ، كيف طلب العلم وتعلم وهرب ، فاسمع ما أقول لك ، فإن طلب العلم إنما يدل على الهروب من الدنيا لا على حبها .

وقال : سمعت حفص بن غياث يقول :

« كنا نستغنى بمجلس سفيان عن الدنيا » .

قال : وسمعت حفص بن غياث يقول :

« كان الفقراء في مجلس سفيان ثم الأمراء »

قال بشر : وكان سفيان يقول :

« من كان عنده شيء من معاش فليتمسك به ، فإنه سيأتي على الناس زمان أول ما يلقي الرجل يلقاه بدينه » .

وكان يقول : سمعت المعافى بن عمران يقول : سمعت الثوري يقول :

« إرضاء الخلق غاية لا تدرك »

وقال : سمعت المعافى يقول . سمعت الثوري يقول :

« ما ضرهم ما أصابهم في ديارهم ، حبر الله لهم كل مصيبة بالجنة » .

وقال : « كان سفيان الثوري إذا عاد رجلاً قال : عافاك الله من النار » .

وقال بشر : حدثنا يحيى بن اليمان عن سفيان عن حبيب بن أبي جمره قال :

« إذا ختم الرجل القرآن قبله الملك بين عينيه » .

ويلع تقدير بشر لكتاب الحديث الذي جمعه سفيان والذي يسمى « جامع سفيان » أن كان يقول :

« ينبغي للرجل إذا حفظ القرآن ، وكتب جامع سفيان ، أن يتفرغ للعبادة » .

ونحب بإذن الله أن نقول : إن بشر لم يتخذ موقفاً معادياً لأحد من الصحابة فقد كان - كما كان سفيان من قبله - سليم الصدر بالنسبة لأصحاب محمد ﷺ .

ولقد نبغ في كثير من العصور نابعة يتعصب لها أو لذلك من الصحابة رضوان الله عليهم ، وتلك نزعة لا ترضى الصالحين فإن رسول الله ﷺ ذكر أصحابه بخير وهم الذين رأوا رسول الله ﷺ ، وشهدوا بوره ، واقتبسوا من سبغ الصافي : مع رسول الله ﷺ ، واتحدوه أسوة ، وافندوا به في أفعاله وأحواله ، ورووا كل ذلك وبشروه بأقوالهم وأفعالهم ، إنهم الذين أيدوا الدين بأموالهم وأنفسهم ،

ومهم كان أهل بدر .. ولقد وصل ببعض الناس الانحراف أنهم تداولوا هذا أو ذاك من أهل بدر بالتحريج أو بالبعد ، وكل ذلك إما ينسج عن نفوس فيها كبر ، وكل متكبر بعيد عن الله ومن أجل بعده عن الله بكرهه لم يجعل الله في الجنة مثوى للمتكبرين .

وطريق الصالحين الحب للصحابة : ويروى عن بشر أنه سبىم القصير بالسبية لهم جميعاً ، ومما له مغرى في ذلك أنه يروى عن عبد الله بن الخريسي عن سويد مولى عمرو بن حريث قال : سمعت علي بن أبي طالب يقول على المنبر : إنا أفضل الناس بعد رسول الله ﷺ أبو بكر وعمر وعثمان رضي الله تعالى عنهم^(١) ، ومما روى بشر في ذلك أيضاً : أنه سمع الحجاج بن المهدي يقول : سمعت حماد بن سلمة يقول سمعت عاصمًا يقول : سمعت رداً يقول : سمعت أبا جحيفة يقول خطيباً على بن أبي طالب على سر الكوفة فقال

ألا إنا خير الناس بعد رسول الله ﷺ أبو بكر ، ثم عمر ، ولو شئت أن أحبركم بالثالث لأخبرنكم ، ثم نزل من على اسير وهو يقول عثمان ، عثمان !

ولكن بشرًا لا يتحدث عن الحلفاء رضي الله عنهم فحسب ، وإنه يتحدث عن صحابة رسول الله ﷺ بصفة عامة ، إنه يقول :

لو أن الروم سبوا من المسلمين كذا كذا ، فمردهم رجل كذا في قلبه سوء لأصحاب النبي ﷺ لم ينمعه ذلك !

ويروى هذا المعنى بصورة أخرى فيقول :
 لو أن الروم بأسرهم جاروا إلى باب الأسار ، فخرج إليهم رجل حتى
 يدهم إلى الموضع الذي جاءوا منه ، ثم سقص سقفاً من أصحاب رسول
 الله ﷺ مقدار ثقب إبرة ما نفعه ذلك !
 ويتشكى بشر بهذا الشعور فيقول : ما أنا بشيء من عملي أوثق به
 شي بحبي أصحاب محمد ﷺ .
 ويقول : أوثق عملي في نفسي حب أصحاب محمد ﷺ .

بشر وإمام دار الهجرة

ومن التقى بهم وأخذ عنهم في بغداد إمام دار الهجرة ، مالك بن
 نيس صاحب الكتاب المبارك المشرق ، كتب «الموطأ» والذي كان يجلس
 مدينة رسول الله ﷺ أن يسير فيها راكباً احتراماً لمورها ﷺ ، والذي
 وقف مع الحق طيلة حياته ، وبأنه أدى كثير بسبب استمساكه بالحق !
 ويخبر إبراهيم بن هانئ ، قال قلت لشريك الحارث : يا أبا نصر :
 سمعت من أنس بن مالك ؟
 قال نعم : حججت معه ، وسمعت عنه .

بشر والفضل

وتعلم بشر على الفضيل :
 يروى المؤرخون أن بشرًا أخذ عن الفضيل
 والفضل هو صاحب التوبة المشهورة التي نقتنه في لحظة من حال
 ل حال ، وبدت حياته فأصبحت حياة طهر كامل

وهو وبشر تتشابه حياتهما في كثير من الجوانب المشرقة المضيئة .

ويروى بشر عن لفضيل أنه قال :

« لا تكتمل مروءة الرجل حتى يسلم منه عدوه ، كيف والآن
لا يسلم منه صديقه » !

لقد التقى بشر في بغداد بالكثيرين ، وتلمذ على كتبه أو عليهم .
وكثيراً ما يروى عن المعافى بن عمران ، إما له ، وإما بواسطة ،
من ذلك :

سمعت المعافى بن عمران عن الأوراعى قال :

كان يقال : يأتي على الدس زمان أقل شيء في ذلك الزمان أخ
مؤنس ، أو درهم من حلال ، أو عمل في سنة !
وكما أعجب بشر بسفيان الثوري ، فإنه روى لسفيان ابن عيينة ،
ومما رواه عنه :

« ليس العاقل الذي يفعل الخير والبشر ، إنما العاقل الذي إذا رأى
الخير أتبعه ، وإذا رأى الشر اجتنبه » !

ومما تحدث به عن إبراهيم بن أدهم ما يلي :

قال رجل له :

إني أحب أن أسلك طريق إبراهيم بن أدهم قال : لا تقوى !

قال الرجل : ولم ذلك ؟

قال : لأن إبراهيم عمل وم يقل ، وأنت قلت ولم تعمل !

(ج) المحدث

انغمس بشر وصي الله عنه في العلم من قمته إلى قدميه ، وكان العلم إذ ذاك يطلق - على الخصوص - على علم الحديث - وأصبح محدثاً ثقة ..

ولقد أجمع المحدثون أنه ثقة ، يقول الدارقطني

« هو ثقة لا يروى إلا حديثاً صحيحاً » .

وهذا هو رأى علماء الحديث فيه .

ويذكر ابن عساكر أنه تعلم في الحديث على مجموعة كبيرة من العلماء ، وأنه دخل على أنس بن مالك وسمع منه ، وحدث عن حماد بن زيد ، وأبي الأحوص سلام بن سليم ، وفضيل بن عياض ، والمعافى بن عمران الموصلي ، وعبد الله بن داود الحريبي ، ويحيى بن اليمان ، وعبد الله بن المبارك وعيسى بن يونس ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، وزيد بن يزيد بن أبي الزرقاء ، وعلي بن مسهر ، وأحجاج بن متهم ، وحالد بن عبد الله الواسطي الضحان ، وحكى عن قاسم الجوعى -

ويذكر ابن عساكر أيضاً أنه :

سمع إبراهيم بن سعد الزهري وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وحماد بن زيد ، وشريك بن عبد الله والمعافى بن عمران الموصلي ، وعبد الله بن المبارك ، وعلي بن مسهر : وعيسى بن يونس ، وعبد الله بن داود الحريبي ، وأبامعاوية الصير ، وزيد بن أبي الزرقاء .

وكان كثير الحديث إلا أنه لم ينصب نفسه للرواية ، وكان يكرهها ،
ودمر كتبه لأجل ذلك ، وكل ما سمع منه فأبما هو على طريق المذاكرة

روى عنه نعيم بن الهيثم ، وابنه محمد بن نعيم ، وإبراهيم بن
هاشم بن مشكان ، وصبر بن منصور البرار ، ومحمد بن المثني
السمار ، وسري السقطي ، وإبراهيم بن هانيء اليسابوري
وعمر بن موسى الجلاء ، وغيرهم .

ومما روى عنه وهم كثير :

أحمد بن إبراهيم الدورقي ، وأبو جعفر محمد بن هارون المغدادي
المعروف بابن شيط ، ومحمد يوسف الجوهري ، وعلي بن حشرم
المروري ، ومحمد بن المثني الصوفي ، صاحب بشر ، ومحمد بن عبد الله
الحفي ، وعبد الصمد بن محمد العبادي ، ومحمد بن محمد بن أبي الورد
المعداني الصوفي ، وأبو حفص ابن أحمد بشر الحافي ، وإسحاق بن
عمرو القومسي ، وعبد الله بن إبراهيم السوافي الكوفي ، وأبو الفتح
صبر بن منصور ، ونعيم بن الطصيص الهروي ، والعباس بن الفضل
الحلي ، وإبراهيم بن هاشم البعوي ، وأحمد بن الصلت .

ويذكر صاحب تريح بغداد بشراً ، ورأيه فيه ، ويذكر من تتلمذ
عليهم في الحديث ، ويذكر تلامذته في رواية الحديث أيضاً ، فيقول :

بشر بن خازم بن عبد الرحمن بن عطاء بن هلال بن ماهاد بن
عبد الله أبو نصر المعروف بالحافي .

مروري سكن بغداد ، وهو ابن عم علي بن حشرم

وكان ممن فاق أهل عصره في الورع والزهد ، وتفرد بوفور العقل ،
 وأنواع الفضل ، وحسن الطريقة ، واستقامة المذهب ، وعزوف
 النفس ، وإسقاط الفضول

وسمع إبراهيم بن سعد الزهري ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ،
 وحماد بن زيد ، وشريك بن عبد الله ، وإسحاق بن عمران الموصلي ،
 وعبد الله بن المبارك ، وعيسى بن مسهر ، وعيسى بن يوسف ،
 وعبد الله بن داود الخريزي وأبا معاوية الضريز ، وريد بن أبي الزرقاء ،
 وكان كثير الحديث لأنه لم يصب نفسه لرواية . وكان يكرهها ،
 ودفع لأجل ذلك كتبه ، وكل ما سمع منه وإنما هو على سبيل المذاكرة .

روى عنه نعيم بن أعين ، وإسحاق بن محمد بن نعيم ، وإبراهيم بن هاشم
 من مشكان وحضر بن منصور البرار ، ومحمد بن المنشى السمسار ،
 وعمرو بن موسى الجلاء وغيرهم .

ويقول صاحب الحلية عنه ،

كثير الحديث لكنه كره الرواية آخرًا ..

وثبت أن ثقف عبد كتمة صاحب الحلية ، فقد اشتهر عن بشر
 كثرة الحديث واشتهر عنه كرهه للرواية .

والواقع أن بشر بدل في سبيل تحصيل الحديث كثيرًا ، وهي سبيل
 العلم على وجه العموم .

وكان يقول :

لا أعلم شيئًا أفضل منه إذا أريد به وجه الله

وكان بشر يحدث ، وكان يحب أن يحدث .

وكان طلاب الحديث يأتون إلى باب ليحدثهم فيخرج إليهم ويحدثهم ، قال أبو الحسين بن عمرو السبيعي المروزي :

سمعت بشراً ، وجاء إليه أصحاب الحديث يوماً وأنا حاضر ، فقال لهم بشر ما هذا الذي أرى معكم قد أظهرتموه ؟

قالوا : يا أبا نصر ، نطلب هذه العلوم لعل الله عز وجل يجمع بها يوماً .

فقال . أعلمتم أنه يجب عليكم فيها ركعة كما يجب على أحدكم إذا ملك مائتي درهم خمسة دراهم ؟ فكذلك يجب على أحدكم إذا سمع مائتي حديث أن يعمل منها بخمسة أحاديث ، وإلا فانظروا إيش يكون عليكم غداً ؟

قال البيهقي لعله أراد من الأحاديث التي وردت في الترغيب في النوافل ، وأما في الواجبات فيجب العمل بجميعها .

وهذا الذي لاحظته الإمام البيهقي بقوله بشر صراحة ، فقد حدث قاسم بن إسماعيل بن علي قال :

كما يباب بشر بن الحارث ، فخرج إلي . فقلت : يا أبا نصر ، يحدثنا ؟ فقال : أتؤدبون زكاة الحديث ؟

قال : قننا . يا أبا نصر ، وللحديث زكاة ؟

قال : نعم ، إذا سمعتم عملاً ، أو صلاة ، أو تسبيحاً استعملتموه .

وعن عبيد الورق قال . سمعت بشراً الخافى يقول :

أدوا ركة الحديث فاستعمدوا من كل مائتي حديث خمسة أحاديث
 وأحير يعقوب بن بختان القراز قال . سمعت بشر بن الحارث يقول :
 لا أعلم على وجه الأرض عملاً أفضل من طلب العلم والحديث ،
 لمن اتقى وحسنت بيته ، وأما أنا فأسئف أن الله في كل خطوة خطوت فيه .
 أما استغفار بشر من كل خطوة خطاها فيه فإن به أسباباً ، وذلك
 أن بشراً رأى أن مريد الحديث إنما يريدونه للدنيا ، ويوضح فكرته
 في ذلك قوله :

كان العلماء رضى الله عنهم مرصوفين بثلاثة أشياء :

صدق اللسان ، وطيب المنعم ، وكثرة الزهد في الدنيا .. وأن اليوم
 لا أعرف في هؤلاء أحداً به واحدة من هذه الخصال ، فكيف أعيا
 بهم ، أو أبش في وجوههم ؟ وكيف يدعى هؤلاء العلم ، وهم يتغايرون
 على الدنيا ، ويتحاسدون عليها ، ويحرجون أقاربهم عند الأمراء
 ويغتابونهم كل ذلك خوفاً أن يميلوا إلى غيرهم بسحتهم رحصامهم .
 ويحكم يا علماء السوء ، أنتم ورثة الأنبياء ، وإنما ورثوكم العلم
 فحملتموه ورغتم عن العمل به ، وجعلتم علمكم حرفة تكسبون بها
 معاشكم ، أفلا تحافون أن تكونوا أول من تسعر به النار ؟
 وكان رضى الله عنه يقول :

مثل الذي يأكل الدنيا بالعلم والدين مثل الذي يغسل يديه من
 الرهومة^(١) بماء تنظيف السمك ، أو كمثل الذي يطفىء النار بالحشيش .

(١) الرهومة الرائحة النتنة لسماك البحر .

ويقول بعض العلماء وميراث أكل الدنيا بالدين أن تنظر في نفسك ، فكل صفة أُكْرمت لأحدها قدر نفسك عند فقدها ، هل كنت تكرم أم لا ؟ ..

فإن كنت تكرم مع فقدها فقد حُصت ، وإلا فلا .

ومما روى عنه هذه الكلمات النفيسة التي رواها محمد بن المشي قال : سمعت بشر بن الحارث يقول :

لا ينبغي لأحد أن يذكر شيئاً من الحديث في موضع - حاجة يكون له من حوائج الدنيا ، يريد أن يتقرب به ، ولا يذكر العلم في موضع ذكر الدنيا ، وقد رأيت مشايخ طلبوا العلم للدنيا فافتضحوا ، وآخرين طلبوه فوضعوه مواضعه ، وعموا به ، وقاموا به ، فأولئك سلموا فنعهم الله تعالى - وإذا أنت سمعت الشيء من معدن وأحدث به ثم سمعت غيرك يقول بخلافه فلا تماره فإنك لا تستفع بذلك ، واعمل به لنفسك وقد رأيت أقواماً سمعوا من العلم اليسير فعملوا به ، وحرصوا سمعوا الكثير فلم ينفعهم الله به ، فكيف ؟

واعلموا أنه يمنع الرزق طلب هذا الحديث .

ومن المصوص لتي تين ربه في وروح أيضاً ما يرويه الفضل بن العباس الحلبي قال : سمعت أبا نصر بشر بن الحارث - وذكر العلم وطلبه - فقال :

إذا لم يعمل به فتركه أفصح .

والعلم هو العمل فإذا أطلعت الله علمك ، وإذا عصيته لم يعمدك .

والعلم أداء الأسياء إلى أصحابهم ، فذكرو أن النبي ﷺ أدى إلى أصحابه فتمسكوا به ، وحفظوه ، وعمموا به ، ثم أدوه إلى قوم . فذكر من فضلهم ، وأدى أولئك إلى قوم آخرين ، فذكر الطقات الثلاث ، ثم قال أبو نصر . وقد صار العلم إلى قوم يأكلون به

وما كان بشر قط في موقفه إلا حائزاً على أن يفيد الناس من العلم ويجنوا من ثمرته ، وثمرته إنما هي العمل به ، وهي التقوى ، وهي ذلك يقول :

العلم حسن لمن عمل به ، ومن لم يعمل به ما أضره .

وقال : هذه حجاج أو قال : هذه حجة - يعني : على من علم

ويقول جعفر بن محمد بن حرب العادني : سمعتُ بشر بن الحارث يقول :

« إنما فضل العلم العمل به ، ثم يرتقى به » .

ويقول بشر . سمعت عبد الله بن داود يقول . سمعت سفيان يقول :

« إنما فضل العلم على غيره ليقبى به » .

وفي ضوء ما سبق نفهم البصوص التالية على وضعها الصحيح حدث إبراهيم بن هانيء النيسابوري قال . سمعت بشر بن الحارث يقول :

يُني لأستغفر الله عز وجل من طلب الحديث . وإنما هو فتنة إلا لمن أراد الله عز وجل به خيراً

وقال بشر بن الحارث :

إنما الحديث اليوم طرق من طلب الدنيا وندته ، وما أدري كيف
يسلم صاحبه ، وكيف يسلم من يحفظه .. وما هو من سلاح الآخرة ،
وما هو من عدد الموت .

وقال : من طلب الرياسة بالعلم تقرب إلى الله ببعضه . فإنه مقت
في السماء والأرض ، وأحبر أبو إبراهيم إسماعيل ابن السندی بن هارون
الخلال قال : سألت بشر بن الحارث عن حديث فقال :
اتق الله ، فإن كنت تريده للدنيا فلا ترده ، وإن كنت تريد الآخرة
فقد سمعت .

قال أبو إبراهيم :

الحديث الذي سألته : عيسى بن يونس عن الأوزاعي عن حسان بن
عطية

قال : إن الملك ليصعد بعمل العبد معجباً به حتى يقف بين يدي
الله عز وجل ، فيقول الله عز وجل له :
« اجعلوه في سجين فإنه لم يردني به » .

وكان بشر ينصح العلماء ، ويشقلمهم ، ويوجههم بأسلوب مباشر ،
وبأسلوب غير مباشر ، ومن ذلك مثلاً قوله :
عقوبة العالم في الدنيا أن يعمى بصر قلبه .

أي إذا لم يتق الله فيما يعلم ، أو إذا أكل دياره بديه .

ويقول : علماء زماننا إنما هم متلدّدون بالعلم يسمعون ويحكمونه فقط

كل حرف من العلم يدل صاحبه على الهرب من الدنيا وروى القاسم بن منية قال : سمعت بشر بن الحارث يقول : لا تطلب علماً تهينه للناس ، هذا هو الداء الأكبر

ويقول محمد بن سهرم : قال أهل الحديث لبشر بن الحارث حدثنا ، فأنشأ يقول :

صار أهل الحديث فيهم حديثاً : إن شئ الحديث أهل الحديث .

ونختم هذا الفصل بما رواه أبو عبد الرحمن السلمي من قول الدارقطني عن بشر عندما سئل عنه . فقال . راهد جبل ثقة ليس يروى إلا حديثاً صحيحاً ، وربما تكون البلية ممن يروى عنه !!

(د) أحاديث رواها بشر

وما روى عن بشر بن الحارث بسنده جملة من الأحاديث ، منها :

- ما رواه عن أنس رضي الله عنه - قال :

« اتخذ النبي - ﷺ - حاتمًا فلبسه ثم لقاه »

وما رواه بسنده عن أبي سعيد رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ .

« ثلاث لا تفطر الصائم ، الحجامة ، والاحتلام ، والقىء » .

- وما رواه بسنده عن عبي بن أبي طالب - رضى الله عنه - قال :
قال النبي ﷺ

« كلوا انثوم يثا ، فلولا أن الملك يأتيى لأكتمه »

- وما رواه بسنده عن عائشة - رضى الله عنها - أنها قالت :
« يا رسول الله ، هل على النساء قتال ؟ قال : نعم ، جهاد لا قتال
فيه ، الحج والعمرة » !

- وما رواه بسنده عن أبي هريرة - رضى الله عنه - قال قال
رسول الله ﷺ :

« إذا قعد بين شعبها الأربع واحتهد فقد وجب لعسل »

وما رواه بسنده عن أبي هريرة أيضا ، قال : قال رسول الله ﷺ :
« ليس على المسلم في عبده ، ولا في فرسه صداقة »

- وما رواه بسنده عن ابن عمر - رضى الله عنهما - أن النبي
ﷺ « كان يصلي على راحلته في السفر يسما توجهت به ، يومئذ
إيماء ، ويحمل سجوده أحصى من ركوعه »

- وما رواه بسنده عن أنس بن مالك قال :

« وجهى وفد المصطفى إلى رسول الله ﷺ فقال سلم إن جئنا
في العام الفابل ، فلم نجدك ، إلى من ندفع صدقاتنا ؟ قال فعلت له ،
قال قل هم ادفعوها إلى أبي بكر ، قال : فقلت لهم ، فقالوا . قل
له : فإن لم يجد أب بكر ؟ قال : فقلت له ، فقال هم . ادفعوها إن

عمر ، قال : فقلت لهم ، فقالوا : قل له فإن لم نجد عمر ؟ فقلت له فقال - ادفعوها إلى عثمان ، وثأ لنا يوم يقتل عثمان !
 - ومما رواه أبو نعیم قال : جاءني بشر بن الحارث فقال : حدثني بحديث النبي ﷺ :

« إن الله تعالى عند لسان كل قائل »

- فقلت : حدثنا عمر بن در عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ :
 « إن الله تعالى عند لسان كل قائل »

فقلت : ما بقي امرؤ علم ما يقول ؟ فقال : حسبك ! ورجع .

الفصل الثالث مواظظ وحكم

وكان رضى الله عنه يقول :

« حسبك أقوام موتى تحيا القلوب بذكرهم ، وإن أقوامًا أحياء تقسو القلوب برؤيتهم » !

وكان رضى الله عنه يقول :

« من أراد أن يكون عزيزاً فى الدنيا ، سليماً فى الآخرة فلا يحدث ، ولا يشهد ، ولا يؤم قوماً ، ولا يأكل لأحد طعاماً » .

ومن كلامه رضى الله عنه :

« لا يجد حلاوة الآخرة رجل يحب أن يعرفه الناس » - يعنى يحب اطلاع الناس على صفات كماله .

وكان رضى الله عنه يقول :

« سيأتى على الناس زمان تكون الدوة فيه للحمقى والأراذل ، على أهل العقول والأكابر » !

وقال : « خصلتان تفسيان القلب ، كثرة الكلام ، وكثرة الأكل »

قال الحسن بن عمرو السيعى : سمعت بشر بن الحارث يقول :

« الصبر هو الصمت : والصمت من الصبر ، ولا يكون المتكلم أروع من الصامت إلا رجل عالم يتكلم في موضعه ، ويسكت في موضعه » .
 وكان يقول : « انى لأجل الله تعالى أن أذكره عند من لا يعرفه ، ولا يعرفه ! »

وكان رضى الله عنه يقول :

« أمس قد مات ، واليوم في الزرع ، وعدداً لم يولد ، فبادر بالأعمال الصالحة » .

ومن نصائحه :

« إذا راسلت أحداً بكتاب فلا ترخرقه بحسن الألفاظ فإنى كتبت مرة كتاباً ، فعرض كلامى إن كتبه حسن الكتاب وكان كذبا ، وإن تركته سمح الكتاب وكان صدقا ، فعزمت على ذكر الكلام السمح الصدق ، فنادى هاتف من جانب البيت :

﴿ يَبْتَغِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ﴾ (١)

وقيل له : م لا تدخل الجامع تعظ الناس ؟ قال :

« إنما يدخل الجامع جامع » .

وقد سُئل عمن يعتاب الناس هل يكون عدلاً ؟

فقال : « إذا كان مشهوراً بذنوب فهو الوضيع » !

(١) إبراهيم - ٢٧

وقال: « عاقب الفقر، وتوسّد الصبر، وعاد الهوى، وحالف الشهوات، وضيق الدنيا عليك كحزمة خاتم، فبهذه يطيب السر إلى الله ».

وقال: « من أفضل أعمال البر الصبر على الفقر » .

وقال: « إياك والأغوار بالنسر، والاتكال على حسن الذكر » .

وقال: « النيل والنهار حثيثان، يعملان فيك، فاعمل فيهما »

وقال: « لقي حكيم حكيمًا، فقال: لا رآك الله عندما نهاك عنه، ولا فعلك حيث أمرك » .

وقد حكى عن سفيان الثوري أنه قال: إن أقمح الرعية أن تصلب الدنيا بعمل الآخرة .

وسمع بشر بن الحارث يقول: « سمعت خالدًا الطحان وهو يذكر: إياكم وسرائر الشرك » !

وقال: « إني لأحلل الله أن ذكره عدد من لا يحبه » .

وقال الحسن بن عمرو السبيعي سمعت بشر بن الحارث يقول: « لا تكون كاملاً حتى يأمنك عدوك، وكيف تكون حيراً، وصديقك لا يأمنك ».

وكان علي بن حشرم يقول: سمعت بشر بن الحارث يقول: « خلعت لديار فسدت غير مسود ومن الشقاء تفردى بالسودد وسمع الحسن بن عمرو السبيعي يقول: سمعت بشرًا يقول: « بي داء ما لم أعالج نفسي لا أتفرغ لعيري، فإذا عالجت نفسي تفرغت لعيري، ما أنصبري بموضع الداء، وموضع الدواء إن أعاني عنه بمعوية ! ثم قال: »

« أنتم الداء! أرى وجوه قوم لا يحافون ، متهاوئين بأمر الآخرة » .

وبأساده قال : سمعت بشراً يقول :

« أنا أكره الموت ، ولا يكره الموت إلا مريب » .

وبه قال بشر :

« حيث لمعرفة الناس رأس حجة الدنيا » .

وأخبر عبيد الله بن عثمان : قال : حدثنا أبو عمر بن السماك حدثنا

الحسن بن عمرو السبيعي : قال سمعت بشراً الحارث يقول :

« يأتي على الناس زمان لا تقر فيه عين حكيم ، ويأتي عليهم زمان

تكون الدولة فيه للمحمق على الأكياس » .

وبأساده قال : سمعت بشراً يقول :

« النظر إلى الأحمق سحرة العين ، والنظر إلى البخيل يقى القلب » .

وبه قال : سمعت بشراً يقول :

« اعمل في ترك التصنع ، ولا تعمل في التصنع » .

ومن مواعظه - ورأى شأاً عليه مرقعة فقال له :

« ثوب شهرة يكرمك الناس لأجها ؟ »

فقال : إني ليستها ليعلم الناس أنني عبد الله فيكرموني لأجبه !

فقال له بشر :

« أحسنت ! مثلك من يصلح له ليس المرقعة » !

وقد سمع بعضهم بشراً يقول :

ذهب الرجال المرتضى لفضلهم والمكروون لكل أمر منكر

وبقيت في خلف يمين بعضهم بعضاً يدفع معور عن معور .

وقال أحمد بن مسكين : خرجت في طلب بشر بن الحرث من باب حرب ، فإذا به جالس وحده ، فأقلت نحوه فلما رآني مقبلاً خط بيده على الحدار رولى ، فأثيب موضعه فإذا هو قد حط بيده : الحمد لله لا شريك له في صبحه دائماً وفي غلسه لم يبق لي مؤنس فيؤنسى إلا أئس أخاف من أنسه فاعتزل الناس بأحبي ولا تركن إلى من تخاف من دسه ويقول من عامل الله بالصدق استوحش من الناس .

ويقول : غيمة المؤمن غفلة الناس عنه .

ويقول عن المعالي بن عمران عن الثوري :

« رضا المتجنى عايه لا تلوك » .

ومما رواه بشر :

« لا يكون العبد تقياً حتى يكون تقى الغصب »

ومن طرائف ما روى عن بشر قوله :

قال موسى عليه السلام : يارب ! فقال الله تعالى : بئس يا موسى ، قال إني جائع فأطعمني ، قال : حتى أشاء .

ومن كلامه عن المريدي لا يفلح مريد يقول : بأى شيء أكل خبرى . وكان يقول :

« أسد الأعمال ثلاثة ، الجود في القلة ، والورع في الحدة ، وكلعة الحق عند من يخاف ويرجى » .

ومن حكم بشر ومواعظه خطباته لأصدقائه ، ومنها ما كتبه إلى
عبي بن عثرم ، قال :

« إلى أبي الحسن علي بن عثرم ، السلام عليك ، فإني أحمد إليك
الله الذي لا إله إلا هو ، أما بعد ، فإني أسأل الله أن يتم ما بينا وبينكم
من نعمة ، وأن يوفقنا وإياكم الشكر على إحسانه ، وأن يجمعنا ويحيينا
وإياكم على الإسلام وأن يسلم لنا ولكم خلفاً من تلق ، وعوضاً من
كل رزية ، أوصيك بتقوى الله يا علي ، ولزوم أمره ، ولتمسك بكتابه ،
ثم اتباع آثار القوم الذين سقوا بالإيمان : وسهلوا لنا السبيل ، فاجعلهم
نصب عييتك ، وأكثر عرض حالاتهم عليك تأنس بهم في اخلاء ،
وبعوك عن مشاهدته الملاء ، فمثل حالهم كأنت شاهدهم ، فمحالسة
أصحاب النبي ﷺ أوفق من محالسة الموتى ، ومن يرقب منك رلتك
وسقطتك إن قدر عليها ، فإن لم يقدر عليها جعل حليساً إن رآه عندك
عيك ، فربما يكسب ما يره الله منك وعلم عمنك الله بحير ،
وجعلك

من أهله : إن أكثر عمرك فيما أرى قد انقضى ، ومن يرضى حاله
قد مضى ، وأنت لاحق بهم ، وأنت مضروب ولا تعجز طابك .
وأنت أسير في يديه ، وكل الخلق في كبرياته صغير ، وكلهم إليه
فقير ، فلا يشغلك كثرة من حيث ، وتضرع إليه تضرع دليل إلى
عزير ، وفقير إلى غني ، وأسير لا يجد مدحاً ولا مفرأ يفر إليه عما ،
وحائف مما قدمت يده ، غير واثق على ما يقدم ، لا يقطع الرجاء ،
ولا يدع الدعاء ، ولا يأمن من افتتن وابلأ ، فلعنه إن رآك كذلك

عطف عليك بفصله ، وأمدك بمعونته ، وبلغ بك ما تأمله من عفوه
ورحمته ، فافزع إليه في نوائك ، واستعن به على ما ضعفت عنه
قولك ، فإنك إذا فعلت ذلك قربك بحضوعك له ، ووجدته أسرع
إليك من أبويك ، وأقرب إليك من بصمت وبالله التوفيق ، وياه أسأل
خير الموابنا ولك .

واعلم يا علي أنه من ابتى بالشهرة ومعرفة الناس همصيته جليلة ،
فحبرها الله لما ولك بالخصوع والاستكانة ، والذل لعظمته ، وكفانا
رباك فتنتها ، وشر عاقبتها ، فإنه تولى ذلك من أوليائه ، ومن أراد
توفيقه ، وارجع إلى أقرب الأمور بك إلى إرضاء ربك ، ولا ترجع
بعليك إلى محمدة أهل زمانك ، ولادهم ، فإن من كان يتقى ذلك مه
قد مات ، وإثارة إحياء القلوب من صالح أهل زمانك ، وإنما أنت في
محل موتى ، ومقابر أحياء مانواع الآخرة ، ودرست عن طرقها آثارهم !

هؤلاء أهل زمانك فتوار بما لا يستضاء فيها بنور الله ، ولا يستعمل
فيها كتابه إلا من عصم الله ، ولا تنال من تركك منهم ، ولا تأس على
فقدهم ، واعلم أن حطك في بعدهم أوفر من حصك في قريهم ،
وحسبك الله فاتحده أيسر عصيه الحنف منهم ، فاحذر أهل زمانك ،
وما العيش مع من يظن به في زمانك الحير ، ولا مع من يساء به الظن
حير ، وما يسقى أن يكون ضلعة أبصر إلى عاقل تهمة نفسه من طلعة
إنسان في زمانك ، لأنه مه على شرف فتنة إن جالسته ، ولا تأمن البلاء
إن جالسته ، ولدموت في العزة حير من الحياة ، وإن ظن رحل أن ينجو
من الشر وتأمن خوف فتنة ملائحة له ، إن أمكتهم من نفسك آثموك

وإن جانيهم أشركوك ، فاختر لعسك واكره لها ملابتهم ، وأرى أن
الفضل اليوم ما هو إلا في العزلة ، لأن السلامة فيها ، وكفى بالسلامة فضلاً .

اجعل أدبك عما يؤثمت صماء ، وعيبك عما عيباء !

احذر سوء الظن ، فقد حذر الله تعالى ذلك ، ودلت قوله تعالى !

﴿ إِنْ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ﴾^(١) وإسلام .

ويلاحظ القارئ أن بشرًا اهتم بأمور في هذا انخصاب منها :

الحديث عن حب المدح والشهرة ، ومن حكم بشر في ذلك قوله :

« ما أعرف رجلاً أحب أن يعرف إلا ذهب دمه وافتضح » ! وقوله :

« سيكون النفس إلى المدح وقبول المدح لها أشد عليها من المعاصي » .

وقوله : « لا يجد حلاوة الآخرة رجل يحب أن يعرفه الناس » .

وقوله : « ما اتقى الله من أحب الشهرة » !

وقد سبق كثير من قوله حول هذا المعنى ،

ربما رواه عبد الصمد بن محمد عن بشر قوله :

« أم تستحي أن تطلب الدنيا ممن يطلب الدنيا ، اطلب الدنيا ممن

بيده الدنيا » !

وعن جعفر بن هاشم المؤدب قال : سمعت بشر بن الحارث يقول .

« الخلال لا يحتل السرف » !

(١) الخبرات - ١٢ .

قال : وسمعت بشرًا يقول :

« الأخذ من الناس مذلة » .

وقيل لبشر بن الحارث :

العبادة لا تصلح إلا بالصيام ، فقال « قد يصوم المر والفاجر ،
فإن كنت صائمًا فاجتنب كثرة الكلام والغيبة ، وأطب مطعمك معه
إن يسلم لك صومك ، وإلا فاستخر الله وكل » !

ومن مواعظ بشر :

ما حدث به محمد بن عبد الله عن رجل قال : رأيت بشر بن الحارث
وقف على أصحاب الفاكية ، فجعل ينظر إليه ، فقلت : يا أبا نصر
لعلك تشتهي من هذا شيئًا ؟ قال : « لا ، ولكن بطرت في هذا ،
إذا كان يطعم هذا من يعصيه فكيف من يطعمه » !

وقد حكى عن بشر أنه كان يمشي معه متصرفًا من الجمعة فمر
بباب الشام ، فنظر إلى السجن ، ثم نظر إلى أصحاب الفاكية بخدائه ،
فالتفت إلى الشيخ فقال : انظر إلى هؤلاء - يعنى أهل السجن - أرادوا
هذا من الفاكية فدم يسألوا الله ، فصاروا إلى هذا .

وعن محمد بن منصور الطوسي قال : سمعت بشر بن الحارث يقول :

« انظر لا يأخذك وأنت ذاهب في حاجة » ! - قال أبو الفضل :

يعنى الموت !

ومن دعاء بشر ومواعظه :

ما روى عن زريق الدلال : سمعت بشر بن الحارث يقول :

«اللهم استر، واجعل تحت المستر ما تحب، فربما سرت على ما تكره»!

ثم التفت إلى فقال لي :

« يا أخى بادر بادر ، فإن ساعات الليل والنهار تهب الأعمار » !

وكان بشر يقول :

« ينبغي للرجل أن ينظر خبره من أين هو ؟ ومسكنه الذى يسكن
أهله من أى شيء هو ؟ ثم يتكلم !

وهى هذا المعنى كان يقول كثيراً :

« انظر حبزك - من أين هو ؟ وانظر إلى مسكنك الذى تثقل فيه
كيف هو؟ وأقل من معرفة الناس ، ولا تحب أن تحمد ، ولا تحب انشاء » !
ومن قول بشر :

« إذا أحب الله عز وجل ان يتحف العبد سلط عليه من يؤديه » !
وقوله : « لا خير فيمن لا يؤدى »

وقوله - « لا ينبغي أن يأمر بالمعروف ، وسهى عن المنكر إلا من
يصبر على الأذى » !

ومن مواعظه الحكمية :

ما روى عن عبد الله الوراق قال : « خرجت يوم الجمعة مع بشر
- يعنى ابن الحارث - إذ دخل المسجد وعليه ثوب منقطع ، فردده
العوب ، فذهبت لأكله فمضى ، فجاء فجلس عند قبة الشعراء ،

فقلت له : يا أبانصر . م لم تدعني أكنمه ؟ قال اسكت ، سمعت
المعافي بن عمران يقول سمعت سفيان الثوري يقول .
« لا يدوق العبد حلاوة الإيمان حتى يأتيه البلاء من كل مكان » .
وكان بشر يقول - عن المدمنين في الشراب - :
« ينبغي لهؤلاء القوم الذين يعتكفون على هذا المكر أن لا تقل لهم
شهادة » .

وكان بشر يقول :

« طوبى لمن ترك شهوة حاضرة لوعده غائب » !

ومن حكمه :

« لو لم يكن في لقنوع إلا التمتع بالعر كفى صاحبه » .

ومنها قوله :

« كلما اشتهى رجل لقاء رجل ذهب إليه هذه فتنة ولدة ، يتلذذون
بلقاء بعضهم بعضاً ، يسعى للإنسان أن يقبل على نفسه ، وعلى القرآن !
وقوله : « إذا عرفت في موضع ماهرب منه ، وإذا رأيت الرجل
إذا اجتمعوا إليه في موضع رمه واشتبهى ذاك فهو يحب الشهرة » !
ودخل محمد بن عيسى بن أبيه على بشر في عتبه فقال : عظمي ! فقال .
« إن في هذه الدار نعمة تجمع الحب في الصيف لتأكده في لشتاء ،
فلما كان يوم أحدثت حبة في فمها ، فحاء عصفور فأخذها والحمة
فلا ما جمعت أكلت ، ولا ما أملت نالت » !

قلت له : زدني ! قال :

« ما تقول فيمن القبر مسكنه ، والصراط جواز ، والقيامة موقفه ،

والله مسائله. فلا يعلم إلى حنة يصير فيهمى، أو إلى نار فيعزى، فواصول
حرابه، واعظم مصيبتاه، راد المكاء فلا عراء، واشد الخوف فلا أمن !

وروى ابن حفص عمر بن أخت بشر بن الحارث قال :

حدثني أُمِّي قالت : جاء رجل إلى الباب فدقّه ، فأحابه بشر . من
هذا ؟ قال : أريد بشرًا فحرح إليه فقال : حاجتك عماك الله ، فقال
له : أنت بشر ؟ قال : نعم حاجتك ؟

قال : بئى رأيت رب العزة فى اسم وهو يقول لى : اذهب إلى بشر
فقل له : يا بشر لو سجدت لى على الأحمر ما أديت شكرى فيما قد
يشت لك - أو نشرث لك - فى الناس .

فقال : أنت رأيت هذا ؟

فقال : نعم ، رأيت ليلتين متواليتين .

فقال لا يحبر به أحدًا ، ثم دخل وولى وجهه إلى القبلة ، وجعل
يكى ويضطرب ويقول :

« اللهم إن كس شهرتى فى الدنيا ، ونوهت باسمى ، ورفعتنى
فوق قدرى على أن تمصحنى فى القيامة الآن فعجل عقوبتى ، وخذ
منى بقدر ما يقوى عليه بدنى » !

ولم يقتصر بشر فى أخكه وأبواعط - على الشر ، وإنما عالج الحكمة
وإسوة عن طريق الشعر ، وكان كثيرًا ما يشهد الشعر من قوته ، أو
من قول غيره ، مبدئ فيه الحكمة والموعظة ، ومن ذلك :

ما قاله أبوعاصم المتطلب ، سمعت بشر بن الحارث يتمثل بهذين البيتين ،
وهما بيان لخمود لوراق ، فعجبا منه كيف بلعه هذان البيتان ، وهما :

مكرم الدنيا مهان مستذل في القيامة
والذي هانت عليه فله ثم كرامة

وقال العباس بن يوسف : أنشد بشر بن الحارث :
برمت بالناس وحلافهم فصرت أستاذس بالوحد
هذا لعمرى فعل أهل التقى وفعل من يطلب ما عنده
قد عرف الله ذلك الذي أنه الله به وحده
وقال بشر :

لو لم يكن في الساعة إلا التمتع بالعز لكفى به شرفاً .
ثم أنشد يقول :

أقسمت بالله لرضح النوى وشرب ماء القلب المالحه^(١)
وأعز للإتسان من فقره ومن سؤال الأوجه الكالحة
فاستشعر اليأس نكن داغى ورجعن بالصعقة الراحه
فالعز يأس والتقى سودد وشهوة النفس لها فاضحة
من كانت الدنيا به برة فإنها يوماً له ذابحة

وقال أبو العباس المبرد، حدثني بعض مشايخنا قال: كنت عند
بشر بن الحارث يوماً، فرأيت معمولاً، منكلم حتى عريت الشمس،
م رفع رأسه فقال:

ذهب الرجال المقتدى بفعالهم والمنكرون لكل أمر مكر
وبقيت هي خلق يرين بعضهم بعضاً ليدفع معور عن معور

(١) رضح النوى كسره ودقه . والقلب جمع قلب وهو الشر

وقد رويت هذه الآيات عن بشر من وجهين آخرين :
 حدث جعفر بن محمد بن أبي هاشم قال : سمعت بشر بن الحارث
 يقول :

ذهب الرجال المئدي بفعالهم واسكرون لكل أمر مكر
 وبقيت في خلق يرين بعضهم بعضا ليسع معور عن معور

وحدث القاسم بن محمد السلامي قال : سمعت بشر بن الحارث
 يشد لنفسه :

يا من يسر برؤية الإحسان مهلاً أمنت مكائد الشيطان
 حلت القيوب من انعاد وذكره ونشأ غوا باحرص والخسائر
 صارت مجالس من ترى وحديثهم في هنك مستور وخلق قرآن^(١)
 وعن إسماعيل بن عبي مولى بني هاشم قال : كان بشر بن الحارث
 يتمثل .

تعاف القدي في الماء لا تستطعه وتكرع في حوص الدوب فتشرب
 وتؤثر في أكل الطعام أله ولا تذكر الخار من أين يكس
 وترقد يا مسكين فوق معارق وفي حشوها نار عليك نهب
 وحتى متى ما تستصيق جهالة وأنت ابن سبعين بدنيك تلعب
 وقال محمد بن مسم : أنشدني بشر :

ويس من يروفي ديه يعري يا صاح تبريقه
 من حقق الإيمان في قلبه يوشك أن يظهر تحقيقه

(١) أي موضوع القرآن ، هل هو محبوب أو قديم

وقد مثل بشر بن الحارث عن القناعة فقال :

« لو لم يكن في القناعة شيء إلا التمتع بهر الغنى لكان ذلك
يجزىء » ، ثم أنشأ يقول :

أفادتني القناعة أي عزز ولا عزز أعز من القناعة
فخذ منها لنفسك رأس مال وصير بعدها النقوى بصاعة
عجز حالي : تغنى عن حيل وتسعد في الحنان بصير ساعة
ثم قال :

« مروءة القناعة ، أشرف من مروءة البذل والعطاء » .

وقال بشر بن الحارث - رحمة الله عليه - يوماً :

نطع لليال مع الأيام في حلق

والنوم تحت رواق الهم ولقلبي

أحرى وأعذر لي من أن يقال غداً

إني التمسيت العى من كف مختلق

قالوا : رضيت بهذا ؟ قلت : القنوع غنى

ليس الغنى عن كثرة الأموال والورق

رصيت بالله في عسري وفي يسري

فلمست أسك إلا أوضح الطرق

الفصل الرابع الطريق

يقول السادة الصوفية معبرين عن وحدة الهدف وعن اختلاف الطرق
إليه سبحانه :

التوحيد واحد .

والطرق إلى الله كثفوس بنى آدم .

ويعنون بذلك أن الصوفية جميعاً يسرون نحو التحقق بالتوحيد .
والتوحيد واحد هي الماضي والحاضر وفي المستقبل ولا اختلاف فيه

أما الطرق إلى التوحيد فإنها تختلف وتعدد ، ويشبهون ذلك
بالسائرة ومركزها وخطوط تسير من محيط الدائرة إلى المركز .. إن
هذه الخطوط تنفرد كما قرب من المركز حتى إذا وصلت إليه
صبت فيه وانحدت ، والخطوط وإن اختلفت في التعبير والأسلوب
فإنها لا تتعارض ولا تتناقض ، وهي في النهاية تنسم بالوحدة ،
ويقول الشاعر في هذا المعنى :

عباراتهم شتى وحسبك واحد وكل إلى ذلك الحمال سفير

ومع هذا الاختلاف في أساليب التقرب من الله تعالى ، فإن هناك
معالم وأعلام لا يتأني الاختلاف بينها عند الصوفية

ومن ذلك أن لطريق طبعه الإخلاص ، ولن يكون هناك قرب -
لا ولا قلامة ظفر - ما لم يكن الإخلاص ..

ولقد سئل رسول الله ﷺ عن الإيمان فقال : إنه الإخلاص ..
ويقول سبحانه : ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ (١) ..

فكل ما ليس خالصا لوجه الله لا يشب عبده ولا يتقبله .

ولقد بين الله سبحانه أن الرياء على اختلاف صوره شرك يحبط
العمل ، يقول رسول الله ﷺ فيما رواه البيهقي :

(من صام يرائي فقد أشرك ، ومن صلى يرائي فقد أشرك ، ومن
تصدق يرائي فقد أشرك) .

وهذا هو الشرك الأصغر ، وهو مجموعة من الآثام تنزل بالإسناد
إلى مسوى من الأخلاق ليس بكريم ، ومن أهمها الرياء . يقول رسول
الله ﷺ - فيما رواه الإمام أحمد - :

« إن أحوف ما أحاف على أمتي الشرك الأصغر ، فقالوا وما الشرك
الأصغر يا رسول الله ؟ قال : الرياء يقول الله عز وجل إذا جرى الناس
بأعمالهم : اذهبوا إلى الدين كتتم تراءؤن في الدنيا فانظروا هل نحسون
عنكم جزاء ؟ » .

وبعد : فإن كل عمل لا يراد به وجه الله فإنه شرك ، لا يتقبله الله ،
ولا يشب عبده ، والمقصود في هذا هو ما حدث به رسول الله ﷺ

في الحديث الشريف الذي يعتبر مبدأ هاماً من مبادئ الإسلام ، روى
البحاري رضى الله عنه بسنده عن عمر بن الخطاب رضى الله
عنه أن رسول الله ﷺ قال :

« إنما الأعمال بالنية ، وإنما لكل امرئ ما نوى ، فمن كانت
هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته
لديا يصبها أو امرأة يكرها فهجرته إلى ما هاجر إليه » .

ومن أجل ذلك اهتم بشر اهتمام بالغاً بالإحلاص ، ويقول في
ذلك : سمعت المعافى بن عمران يقول : قال رجل لابن الصر الحارثي :
أي أعبد الله ؟ قال : أصلح سريرتك وأعدده حيث شئت ..

وكان بشر عند الصلاة ينزوي في مكان غير مسحوظ ويصلي ،
وكان يفعل ذلك حتى لا يشير إليه الناس بالإكبار والإجلال فيعتر
بفسه ..

وقيل له : ألا تصلي في الصف الأول ؟

فقال : إنما يريد قرب القلوب لا قرب الأجساد

ومن طرائفه في هذا ما يرويه أحد المؤرخين عنه بقوله :

وكان من الذين إذا رُعوا ذكر الله ، فصلى يوماً فطال وأحس ،
ورجل يصلي جمعه ، فخطب به بشر فقال :

لا يصحبك ما رأيت مني ، فإيليس عبد الله مع انلائكة دهرًا ثم
صار إلى ما صار إليه .

وكان يحب دائماً إخفاء أعمال الخير حتى لا يفتنه مدح الناس له ،
وينصح بذلك ، يروى أبو الربيع قال سمعت بشر بن الحارث يقول :
« اكنتم حساباتكم كما تكنتم سيئاتكم » .

ومن الرياء الذي كان ينكره بشر ما يرويه القسم بن منبه قال : سمعت
بشر بن الحارث يقول :
« لا تعط شيئاً لمخافه ملامه الناس » .

ويشدد بشر البجلي التالي مبيهاً أن ما في القلوب يظهر على الحوارح
مهما حاول الإنسان تعطيته عن أعين الناس .

وليس من يروق لي ديه يغري يا صاح بهريقه
من حقق الإيمان في قلبه يوشك أن يظهر تحقيقه
ولكن الإخلاص لا يتأتى إلا إذا سقته توبة صادقة ، وإذا كان
السالك إلى الله تعالى لا ينال حيراً ، ولا يتقدم في طريق القرب من
الله تعالى إلا إذا انغمس في جو الإخلاص فإن هذا الجو لا يتوافر
إلا بالتوبة الصادقة النصوح .

وأول درجات الطريق في الحقيقة - إذن - إنما هي « التوبة »
والجو الإسلامي كله يدعو إلى التوبة ويحث عليها ويوجبها حينما
يكون هناك ذنب ..

ولقد تحدث القرآن الكريم عن التوبة في أساليب مختلفة متنوعة ،
إله يأمر بها ، يقول سبحانه :

﴿ وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحوا ﴾ (١)

ويبين سبحانه أن الذين يكثرون من التوبة هم في مقام المحبة معه .
ويقول في ذلك :

﴿إِنَّ اللَّهَ يَحِبُّ التَّوَّابِينَ﴾^(١) .

والنصير القرآني يستعمل في هذا صيغة المبالغة « التوابين » أي الذين
يكثرون من التوبة .

(أ) التوبة ، حيث تكون الذنوب ، وهي واجبة .

(ب) التوبة - ولا ذنب - إنها تصرع إلى الله تعالى ، فهي طرق
لباب الله تعالى عن طريق الذلة والانكسار ، ولن يفتح للإسناد باب
الله إلا عن طريق التضرع إليه ، والعبودية له .

(ج) التوبة ولا غفلة ، وهي في هذا الجو عبادة ، إنها عبادة
من أسمى العبادات لأنها عبادة من لجأ إلى الله تعالى .

والإكثار من التوبة ثمرته محبة الله تعالى للثواب

ولمقام التوبة هذا السامي كان رسول الله ﷺ يكثّر من التوبة .

« لقد كان يتوب إلى الله ويستغفره في اليوم مائة مرة » .

ومن أجل هذه الممرة لتوبة فتح الله أبوابها على مصاريحها رحمة بعباده ،
وفتحاً لباب حبه هم ، ودعوة كريمة منه سبحانه ، ليغتنمها من سطر
في الأمور وعواقبها ، يقول سبحانه :

﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ
اللَّهَ يَغْفِرُ الذَّنْبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾^(٢) .

(١) المرة ٢٢٢

(٢) الزمر ٥٢

ويقول سبحانه بعد ذلك مباشرة :

﴿وَأَنبِئُوا إِلَىٰ رُكُومِهِمْ وَأَسْمِعُوا بِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصِرُونَ﴾^(١) .

ومى هذا تنبيه قوى نقاد فى التوجيه إلى التوبة بعد أن فتح سبحانه أبوابها على مصاريعها ، ويقول سبحانه بعد ذلك مباشرة أيضاً :

﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رُكُومِهِمْ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾^(٢) .

وهذا هو مقياس صدق التوبة .

إن لتوبة إذا صدقت استتبع لا محالة العمل الصالح حسبما رسمه الإيمان ، وهذا العمل الصالح واسع . إنه اتعاح أحسن ما أنزل من الله تعالى ، وأحسن ما أنزل من الله تعالى إنما هو القرآن بأوامره ونواهيه .. وكان القرآن أحسن ما أنزل لأنه بالأسلوب الإلهى الذى لا ياله التعبير ولا التبديل . لصمان الله تعالى له بالحفظ ، وهو أحسن ما أنزل الله تعالى لأنه الرسالة الحاتمة التى كمل بها الدين ، وأتم بها النعمة ، ورضيها الله ديناً للإتسابة :

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾^(٣)

(١) الزمر : ٥٤

(٢) الزمر : ٥٥

(٣) الحجر : ٩

﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً﴾^(١) .

﴿إن الدين عند الله الإسلام﴾^(٢) .

﴿ومن يشع غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه﴾^(٣) .

وصدق التوبة إداد إنما يتمثل في اتباع أحسن ما أنزل الله .
أما إذا لم تكن التوبة ، وسار الإنسان سادراً في حياته ، لا يراعي
الفصيلة ، ولا يسير على هدى الحق ، فإنه لا معاذير بهن ، ولا علات
يستجاب لها ، يقول سبحانه بعد الآيات السابقة ، ومتابعا رسم المسجع .

﴿أأن تقول بفس يا حسرتا على ما فرطت في جنب الله وإن كنت
من الساخرين أو تقول لو أن الله هداني لكنت من المتقين أو تقول
حين ترى العذاب لو أن لي كربة فأكون من المحسنين﴾^(٤) .

كل هذه معاذير لا تقبل ، أما السب في أنها لا تقبل فهو ما عبر
عنه سبحانه بقوله :

﴿يلى قد جاءتك آياتي فكذبت بها واستكبرت وكنت من
الكاافرين﴾^(٥) .

(١) المائدة : ٣ .

(٢) آل عمران : ١٩ .

(٣) آل عمران : ٨٥ .

(٤) الزمر : ٥٦ ، ٥٧ ، ٥٨ .

(٥) الزمر : ٥٩ .

﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ مَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مَّسْوَدَةٌ أَلْيَسَ
فِي جَهَنَّمَ مَنُورَى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾^(١) ؟

أما هؤلاء الذين ساروا في طريق الحير والحق ، واتبعوا أحس
ما أنزل الله تعالى ، فإنه سبحانه يبين منزلهم يوم القيامة بقوله .

﴿وَنَحَى اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقُوا بِمَعَارِفِهِمْ لَا يَمْسُهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ
يُحْزَنُونَ﴾^(٢)

وهذه الآيات التي تناهت هي سورة الرمرر بيت أن رحمة الله أوسع
من أن تضيق بذنب .

وأن التوبة هي المدخل إلى الرحمة .

وأن صدق التوبة يتمثل في الانبعاث للفرار الكريم .

وأن المعادير لا تقبل ، لأن آيات الله واضحة ، ولا يكذب بها
إلا كل متكبر فاسد المسيرة .

وأن مصير المكذبين إلى جهنم

والمؤمنين إلى السجاة .

وإذا كان الله سبحانه يحث على التوبة بشئ الطرق ، فإن من هذه
القصص الأحاديث القدسية . ومن ذلك هذه الكلمة التي تسع الدروة

(١) الرمرر ٦٠

(٢) الرمرر ٦١

عنوبة ورفقة ورحمة .. روى الإمام مسلم بسنده حديثاً طويلاً جاء فيه عن رسول الله ﷺ : يقول رب العزة جل جلاله :
 « يا عبادي إنكم تخطئون بالنهار وأنا أعمر الذنوب جميعاً فاستغفروني أغفر لكم » .

ولقد تبصر كثير من الناس في القرآن الكريم ، واستخرجوا منه مبادئ لسيرهم في الحياة ، ومن ذلك فيما يتعلق بالتوبة ما يروى عن عقيقة ويروى الأسود عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنهم قال :
 في كتب الله عز وجل آيات ، ما أدنب عبد ذنباً فقرأها واستغفر الله عز وجل إلا غفر الله تعالى له :

﴿والدين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون﴾^(١) .

وقوله عز وجل .

﴿ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستعفر الله يحد الله غفوراً رحيماً﴾^(٢) .

ويروى عن قتادة رحمه الله قوله :

انقرآن يدلکم علی دوائکم ودوائکم .. أما دوائکم فالذنوب .
 وأما دوائکم فالاستغفار .

(١) آل عمران : ١٣٥ .

(٢) النساء : ١١٠ .

ويتناسق رسول الله ﷺ مع الوضع القرآني فيما يتعلق بالتوبة ،
ويسير صوات الله وسلامه عليه ميسرا فضيل الله تعالى على عبده في
فتح الأبواب واسعة عريضة للتوبة ، فعن أبي موسى عن النبي ﷺ
- فيما رواه الإمام مسلم - قال :

« يا لله عز وجل ييسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ، وييسط
يده بالنهار ليتوب مسيء الليل ، حتى تطلع الشمس من مغربها » .

والله سبحانه يفرح بتوبة عبده المؤمن ، ولحديث التالي طريف كل
الضرافة في تصوير ذلك : يروى الإمام مسلم في صحيحه أن رسول
الله ﷺ قال :

« الله أشد فرحًا بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على
راحته بأرض فلاة ، فانتصب سهو عبيها طعامه وشرابه ، فأيس منها ،
فأتى شجرة فاصطاح في ظلها وقد أيس من راحته ، فينما هو
كذلك ، إذ هو بها قائمة عنده ، فأحد بخطامها ، ثم قال من شدة
المرح : اللهم أنت عدى وأما ربك ، أخطأ من شدة المرح » ..

ويروى الإمام العزى عن بعض العلماء أنه قال

« العبد بين دس وبعمة ، لا يصلحهما إلا الاستغفار والحمد » .

أما ما يروى عن رسول الله ﷺ في صيغ التوبة والاستغفار ، فإنه
كثير ، من ذلك ما رواه الإمام مسلم في صحيحه بسنده عن
أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يقول في استغفاره

« اللَّهُمَّ اغفر لي خطيئتي وجهي ، وإسرافي في أمري ، وما أنت أعلم به مني ، اللَّهُمَّ اغفر لي هزلي وجدي ، وحطئي وعمدي ، وكل ذلك عدي .. اللَّهُمَّ اغفر لي ما قدَّمْتُ وما أُخِّرتُ ، وما أُسْرِرْتُ وما أُعْلِنْتُ ، وما أنت أعلم به مني ، أنت المقدم وأنت المؤخر ، وأنت على كل شيء قدير » .

ومن دعاء رسول الله ﷺ - الجميل .

« اللَّهُمَّ اجعلني من الذين إذا أحسوا استشعروا ، وإذا أساءوا استعفروا » .

وسيد الاستغفار هو كما أخبر الصادق المصطفى - صلوات الله عليه وسلامه :

« اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ ، خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ ، وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ ، أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ ، وَأُبُوءُ بِدُنْوَئِي ، فَاعْفُ عَنِّي ، فَإِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ » ..

ولقد سأل سيدنا أبو بكر رسول الله ﷺ عن وصية من الدعاء ينفعه الله بها ، فقال صلوات الله عليه :

« قل اللَّهُمَّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي كَثِيرًا ، وَلَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ ، فَاعْفُ عَنِّي مَغْفِرَةً مِنْ عَدْلِكَ وَارْحَمْنِي ، إِنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ » .

وأمر التوبة والاستغفار عريـب عجيب ، إنهم يحسبـون الذنوب إذا صدقـا محوًا تامًا ، ويبلغان بالعد إلى العفو والمغفرة والرحمة ورحمة الله تعالى ، وليس بعد ذلك مصـحح لطامـح .

ولكن فصل الله لا يقف عند هذا الحد ، فإنه سبحانه وتعالى يقول . ﴿استعصروا ربكم إنه كان غفارا ، يرسل السماء عليكم مدرارا ، ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا﴾ (١) . ويقول سبحانه :

﴿ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدرارا ويزدكم قوة إلى قوتكم﴾ (٢) .

وكل هذا في هذه الحياة الدنيا . وأكثر من ذلك أيضا ومصل الله لا حدود له .

إن الله سبحانه وتعالى يؤكد لنا :

أن الاستغفار آمن من العذاب ، يقول سبحانه .

﴿وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم ، وما كان الله معذبهم وهم يستعصرون﴾ (٣) .

ويقول رسول الله ﷺ .

أعطيت أمانان لأمتي : ﴿وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون﴾

(١) مـوح ١٠ - ١١ - ١٢

(٢) هود ٥٢

(٣) الأنعام ٣٣

فإذا مضت بقي الصائم اناني ، أي بقي صمان الاستغفار أما
من العذاب .

ولقد كان بعض الصحابة يؤدي ما عليه من العبادة والصلاة ، وم
يكثر من الاستغفار في حياة الرسول ﷺ ، ثم لحق لرسول
ﷺ بالرفيق الأعلى ، فأكثر هذا الصحابي من الاستغفار ، فسأله
الصحابة في ذلك فقال :

لقد كنت آما من العذاب بالرسول ﷺ ، فما توفي ﷺ لم يبق
إلا الأمان الثاني وهو الاستغفار ، يقول تعالى .

﴿ وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم
يستغفرون ﴾

ومع كل ذلك ، تأمل معي فضل الله تعالى الواسع يمثل فيما يقول
رسول الله ﷺ :

« من أكثر من الاستغفار جعل الله عز وجل له من كل هم فرجاً ،
ومن كل ضيق مخرجاً ، وورقه من حيث لا يحتسب »
ونعود فنقول :

إن التوبة إذا صدقت من صدقها العزم مؤكداً على ألا يأتي الإساءة
الدنس فيما يستأنف من حياته :

وليشتر في موضوع المعاصي كلمات جميلة ، منها -
لو تفكر الناس في عظمة الله لما عصوه .

وعن القاسم بن مه الخري قال - سمعت بشر بن الحارث يقول
إن لم نعمل فلا نعص .

ويقول بشر هذه الكلمة الخميعة :

« بَأْتِكَ لَا تُخَافُ ، وَبِحُكِّ ، أَلَا تَشْتَاكُ ؟ »

وتذكر هذه الكلمة بقول رسول الله ﷺ عن صهيب الرومي رضي الله عنه :

« نعم العبد صهيب ، لو لم يخف الله لم يعصه » .

ويقول القاسم بن منبه : سمعت بشرا يقول :

« إِنْ مِ تَطْعُ عَلَاتَعَصِهِ » .

ويقول : « ما خلف رجل في بيته أفصل أو خيراً من ركعتين يصيهما »

وكان رضي الله عنه يقول عن جراء من قصر عن العادة في الدنيا

« إذا قصر لعبد فيما بينه وبين الله تعالى أحد منه ما كان يؤثمه »

وقال : « إذا قل عمل العبد ابتلى بالهم » .

ومن المعاصي أن تحلس في مجلس المعصية وإن لم تشارك فيها ،
ويرى بشر أن من فعل ذلك لا تقبل شهادته .

وعن يحيى بن عثمان الحرابي قال : قال بشر بن الحارث .

« يَا أَبَا رَكْرِيَا ، مَنْ جَلَسَ وَالْأَفْرَاحَ تَدُورُ لَا تَقْبَلُ شَهَادَتَهُ »

ويعود فنون إذا صدقت التوبة استسخت المادة ، يروى القاسم بن

منبه قال : سمعت بشر بن الحارث يقول :

« ما خلف رجل في بيته أفصل أو خيراً من ركعتين يصيهما » .

ولعبادة خلاوة : من الذى يحددها ؟

إن الحسن بن عمرو السبيعي قال سمعت بشر بن الحارث يقول :
« لا يحد العبد خلاوة العادة حتى يجعل بينه وبين الشهوات حائطا
من حديد » .

ونطاعة خلاوة ، وفى ذلك يقول بشر :

« من حرم المعرفة لا يجد لنطاعة خلاوة » .

وأخيراً يروى عبيد بن محمد عن بشر بن الحارث أنه قال
لقى حكيم حكيماً ، فقال أحدهما لصاحبه لا يراك الله عندما يهاك ،
ولا يفقدك عندما أمرك .
وإذا صفت التوبة استنزمت .

الورع

ورداً بدأنا الحديث عن الورع ، فإن من الدرر حقاً أن نجد من
يمثل بشراً فى تحريره الحلال !

إن الإمام أحمد بن حنبل يقول لأخت بشر :

(من يتكم خرج الورع)

أما قصة هذه الكلمة ، فهى أن أخت بشر جاءت إلى الإمام أحمد بن
حنبل فقالت : إنا نمرل على سطوحنا ، فمر المشاعل ، عبقع الشعاع
علينا ، فهل لنا أن نغزل فى شعاعها ؟

فقال : من أنت ؟

قالت : أن أخت بشر

فبكى حتى أبكى من حوله ، وقال : من يبتكم خرج الورع ،
لاتعزلى فى شعاعها !

وتروى هذه القصة أيضا على النحو التالى :

وكان عزل أخته فيما ذكر - أنها قصدت أحمد بن حنبل فقالت :
يا قوم بعزل بالليل ، ومعاشا فيه ، وربما يمر بنا بنى طاهر ولاة
بعداد ، وبحر على السطح ، فغزل على ضوءها لطافة والطاقتين ،
أفحله لنا : أم تحرمه ؟

فقال لها : من ألس ؟

فقالت : أخت بشر

فقال : يا آل بشر ، لا عدمتكم ، لا أزال أسمع الورع الصافى من
قبيكم !

وكان الإمام أحمد بن حنبل شديد الإعجاب والتقدير مكانة بشر
فى مقام الورع ، وفى ذلك يروى ابن عساکر ما يلى :

سئل أحمد بن حنبل عن مسألة فى الورع فقال :

أنا أستغفر الله ، لا يحل لى أن أتكلم فى الورع ، أنا آكل من عنة
بعداد ، لو كان بشر بن الحارث صبح أن يجيئ عنة ، فإنه كان لا يأكل
من عنة بعدد ، ولا من طعام السواد . يصح أن يتكلم فى الورع !
وقد بيع به الورع أنه كان لا يشرب من الأنهار التى حفرها الأمراء
ويقول :

« لنهر سب بحرين ماء ، ووصوله إليه ، وإن كان الماء مباحا فى
نفسه » !

ومن أخصر أمور الورع تحرى الحلال في المصعم ، ولقد اشتهر بذلك طائفة من أئمة المسلمين يتحدث عنهم بشر فيقول :

« أربعة رفعهم الله بصيب لمطعم وهيب بن الورد ، وإبراهيم بن أدهم ، ويوسف بن أسباط ، وسالم الحواص »

وكان بشر في الذروة من أوائل الورع ، يقول الإمام الغزالي :

وكان بشر من الورعين فقيل له : من أين تأكل ؟

فقال : « من حيث تأكلون ، لكن ليس من يأكل وهو يكي مثل من يأكل وهو يضحك ، ويد أقصر من يد ، ولقمة أقصر من لقمة » !

ويقول الإمام الياقبي :

« كان بشر لا يمد يده إلى أكل طعام ليس بحلال ! أما سيمان بن يعقوب فإنه يقول : قلت لبشرين لحارث عظمي قال « انظر خبزك من أين هو ، ولا تعرض لحمك لسار » .

ويقول ابن أبي الدنيا قال رجل لبشر : لا أدري بأي شيء آكل خبزي ؟ فقال :

« اذكر العافية ، واجعلها إدامت » ! وبشر في ورعه يتابع القرآن والسنة ، وذلك أن الجو الإسلامي كنه يوجب إيجاباً تحرى الحلال في المصعم ، وقد روى ابن مردويه بسنده عن ابن عباس قال :

تليت هذه الآية عن النبي ﷺ :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا ﴾^(١) .

(١) البقرة : ١٦٨ .

فقام سعد بن أبي وقاص ، فقال : يا رسول الله ، ادع الله أن يجعلني مستجاب الدعوة ، فقال :

« يا سعد أظ مطعم تكن مستجاب الدعوة ، والذي نفس محمد بيده إن الرجل ليعذب اللعنة الحرام في جوفه ما يتقبل منه أربعين يوماً ، وأيما عبد نبت لحمه من السحت والربا فالنار أولى به »^(١) وروى أحمد بسنده عن أبي هريرة قال . قال رسول الله ﷺ

أيها الناس إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً ، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال :

﴿ يَا أَيُّهَا الرِّسْلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا ، إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾^(٢) وقال ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ﴾^(٣)

ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يده إلى السماء يارب ، يارب ، ومطعمه حرام ، ومشربه حرام ، وملبسه حرام ، فأنى يستجاب له ؟ رواه مسلم والترمذي .

وإذا كان الحو لإسلامي بحث على تحرى الحلال في المطعم ، فإنه بحث على تحرى الحلال في كل ما يأتي الإنسان ، وفي كل ما يدع .

يقول الرسول ﷺ - فيما رواه الإمامان بسندهما عن انعمان بن بشير رضي الله عنهما قال سمعت رسول الله ﷺ يقول :

(١) البؤنة : ٥١

(٢) البقرة : ١٧٢

« إن الحلال يُس ، وإن الحرام يُس ، وبينهما مشتبهات لا يعمنهن كثير من الناس ، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه ، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه ، ألا وإن لكل ملك حمى ، ألا وإن حمى الله محارمه ، ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسد فسد الجسد كله ألا وهي القلب » .

« متفق عليه ، ورواه من طرق بألفاظ متقاربة » .

وعن الحسن بن علي - رضى الله عنهما - قال . حمطت من رسول الله ﷺ :

« دح ما يريك إلى ما لا يريث »

« رواه الترمذى وقال : حديث حسن صحيح ، معناه أترك ما تنك فيه ، وحذ ما لا تشك فيه » .

وعن عتبة بن عروة السعدي الصحابي رضى الله عنه قال . قال رسول الله ﷺ : « لا يلعب العبد أن يكون من المتعين حتى يدع ما لا بأس به حذراً مما به بأس » رواه الترمذى وقال . حديث حسن . وكان بشر رحمه الله في الدروة من مقام الورع ا

ونعود - في حاتم هذا الفصل - إلى بشر فروى ما يلي :

يقول محمد بن يوسف الجوهري كنت أمشى مع بشر بن الحارث في يوم صائف ، مصراً من الجمعة ، فاجتروا بسور دار إسحاق بن إبراهيم ، وله هيء ، فجعلت أراحم بشراً إلى الهىء ، وهو يعشى هي

الشمس ؟ فقلت : والله لأسأله . أمن الورع أن يمشى الإنسان في
الشمس فيضر نفسه ؟ فقلت : يا أبصر ، أن اضطرك إلى المي ،
وأنت تمشى في الشمس ! فقال هجيباً :

« هذا في سور فلان » !

وحدث محمد بن عبد الله قال سمعت بشراً يقول :

« إن رجلاً أرسل علاماً له بحية خطب ، وجاء العلام بالخطب
وفيه سببة ، فما ألقى الخطب » قال : « هذه السبلة تردعها إلى الموضع
الذي أحدث منه » !

ومن يرجع إلى حكم بشر ومواعظه يحد الكثير عن الورع ، ويذكر
ها قوله :

« يسعى لرجل أن ينظر حره من أين هو ؟ ومسكه لدى يكه
أعله : من أي شيء هو ؟ ثم يتكلم » !!
ومقام الورع يسلم إلى مقام :

الزهد

والحديث عن الزهد يستلزم تبصراً ودقة في شرح معناه ، وذلك
أن الله سبحانه وتعالى شرع الزكاة ، وجعلها ركناً من أركان الإسلام ،
والزكاة لا يؤديها إلا أصحاب الأموال ، وأما من لا مال لهم ، فإن ركناً
من أركان الإسلام ينقصهم .

وما من شئ في أنهم قد سقط عنهم الإثم لفسادهم ، ولكن ما من
شئ أيضاً في أنهم قد فاتهم - ذوب معصية - ركن من أركان

الإسلام ، وقد يفوتهم ركن آخر هو الحج ، وذلك أن الحج يقتضى نفقة ومالاً ، فإذا كان الإنسان لا يملك ذلك فإنه لا يحج ، وذلك أن الحج لمن استطاع إليه سبيلاً !

وإذا كان من لا مال له لا يؤدي من أركان الإسلام إلا ثلاثة ، وهو وإن كان لا إثم عليه ، فإنه لا يتأني مساوانه بمن يؤدي الأركان الخمسة مادام الإخلاص متوفراً في كل منهما .

ولقد شرع الله البيع والشراء والتجارة ، وتحدث عن الذهب والفضة والمعاملات المالية .

وبين سبحانه الشكر على النعمة ، كما بين أنعمه التي يعمربها لباس صباحاً ومساءً .

وكما أن الفقير الصابر له ثوابه ، فإن الغنى الشاكر له منزلته عند الله تعالى !

وقد عقد الكتّابون موارنات طريقة في أيهما أفضل : الفقير الصابر ، أم الغنى الشاكر ؟

ومهما كان من أمر هذه الموازنة في نهايتها ، فإن مجرد الموارنة نفسها دليل على أن أمر الرهد لا يتحدث فيه بصورة سطحية

على أمر الصحابة - رضوان الله عليهم - ومهم أبو بكر وعثمان .
وعبد الرحمن بن عوف - رضى الله عنهم جميعاً - يوضح شيئاً من المسألة .

إن الكثير من الصحابة ، ومن كبار الصحابة كانوا أعياء ، أم
يكونوا راهبين ؟ أم يكن عثمان رضى الله عنه راهباً . ؟

وقد كان الكثير من التابعين أعياء ، وكانوا زهاداً .

وعند الله بن المبارك ، وسفيان الثوري ، وأبو حنيفة كانوا تحاراً .
وكانوا أعياء ، وكانوا زهاداً !

ما معنى الزهد إذن ؟

معناه : ألا تستعد الدنيا لإسائها ، ألا تجعلها حادماً لها ، ألا يجرى
وراءها في جشع وشهوات ، وحب يعمى ويصم ، ويرسم القرآن
الكريم ذلك فيقول :

﴿ زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين ، والقناطر لمقطرة
من الذهب والفضة ، والخيول المسومة والأعنام والحراث ، ذلك متاع
الحياة الدنيا ، والله عنده حسن المآب ﴾^(١)

ويقول سبحانه :

﴿ فحلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات
فسوف يدفعون عياً إلا من تاب وآمن وعمل صالحاً فأولئك يَدْخُلُونَ
الجنة ولا يظلمون شيئاً ﴾^(٢)

(١) آل عمران ١٤٤ .

(٢) مريم ٥٩ ، ٦٠ .

ويقول عن قارون :

﴿ فخرج على قومه في ريسه ، قال الدين يريدون الحياة الدنيا :
يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون ، إنه لذو حص عظيم ، وقال الدين أوتوا
العلم وبكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا ﴾ (١) .

ومن هنا نتيقن أن الدنيا المسمومة ، إنما هي اتباع الشهوات ، واتخاذ
المال أو الجاه أو القوة وسيلة للانحراف عن السبيل المستقيم .
ونتابع الأحاديث الشريفة وآيات القرآن الكريم في تحذير الإنسان
من الانحراف بلبائيه عن التوجيه الإلهي :

ومن ذلك ما رواه عمرو بن عوف الأنصاري رضى الله عنه أن
رسول الله ﷺ بعث أبا عبيدة الجراح رضى الله عنه إلى البحرين يأتى
بحريتها ، فقدم بمال من البحرين ، فسمعت لأبصار بقدم أبي عبيدة ،
فوافقوا صلاة الفجر مع رسول الله ﷺ ، فلما صلى رسول الله ﷺ
انصرف فعرضوا له ، فتسلم رسول الله ﷺ حين رآهم ، ثم قال :
أطعمكم سمعتم أن أبا عبيدة قدم بشيء من البحرين ، فقالوا : أحمى
يا رسول الله ، فقال : اشربوا وأملوا ما يسركم ، فوالله ما الففر أحشى
عليكم ، ولكنى أحشى أن تسط الدي عليكم كما بسطت على من كان
قبكم فتافسوها كما تافسوها فتهلككم كما أهلكتهم . متفق عليه .
وعن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي ﷺ قال « تعس عبد
الدينار والدرهم والقطيفة والخمصة ، إن أعطى رضى ، وإن لم يعط
لم يرض » رواه البخارى .

(١) النص ٧٩ ، ٨٠

وعن كعب بن عياض رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن لكل أمة فتنه ، وفتنة أمتي المال » رواه الترمذى ، وقال حديث حسن صحيح .

وهكذا إذا تبصرنا فى المصوص الربانية لرأينا أن معنى الدنيا التى يذمها الله ورسوله إنما هى الشهوات والأهواء ولجشع والتكالب ، وهكذا من المعانى التى تنزل بالإنسان عن المستوى لإسانى ، وتحرف به عن طريق الله .

وهذا المعنى هو الذى تحاشاه الصالحون فى كل عصر ، وكانت لهم الثروات العريضة ، فلم تشغلهم عن الله تعالى ، ولم تغل بينهم وبين الصالحات ، بل كانت عوناً لهم على الخير : سداً لحاجه بئس ، وباء للمساجد والمستشفيات ، ودور التعليم ، وطع الكتب التى توجه إلى الله ورسوله .

وموقف بشر رضى الله عنه يتضح دائماً فى هذا الاتجاه .

إنه يصح أحمد بن محمد بن غزوان الطرابلسى ، سنة خمس وعشرين ومائتين فيقول :

عليكم بالرفق والاقتصاد فى العقة ، فلأن تبيتوا جوعاً ولكم مال أحب إلى من أن تستوا شبعاً وليس لكم مال ! .

وقال لى بشر - بلعى أنت لا تدرم السوق ، فالزم ، فلما قت انصرف ، أعاد على : الزم السوق !

ولعل بشراً هي ذلك كان يذكر ما فعل عبد الرحمن بن عوف رضي
الله عنه لأول عهد به بالمدينة المنورة حين سأل :
أين السوق ؟

وردهم فباع واشترى واكتسب ، واستمر هكذا إلى أن أصبح في
يوم من الأيام ذا مال عريض مكنه من التبرع بحمسمائة جمل وما حمت
في سبيل الله .

وسيدنا أبو بكر رضي الله عنه كان يذهب إلى السوق ويتاجر ،
ويكسب المال الكثير ، ويتبرع في سبيل الله ، وفي يوم من الأيام تبرع
بكل ماله في سبيل الله ، ولما قال له رسول الله ﷺ ماذا أبقيت
لأولادك ؟ قال رضوان الله عليه :
بقيت لهم الله ورسوله !

وبدا من جديد الذهاب إلى السوق يبيع ويشترى ، ويكسب
ويتصدق ، وكم من أرقاء اشتراهم وأعتقهم ، ولو لم يكن من الأعياء
لما أسكه ذلك ، وكم لصل من فصل في يد تحب الله ورسوله ، ويؤثر
الله ورسوله .

وسيدنا عثمان :

يحفز ثمر رومة فيسمر بذلك الماء على الآلاف من العطاش ويجهر
جيش العسرة من ماله الخاص !

ويأتي يمان كثير فيهرعه في حجر رسول الله ﷺ ، ويسر رسول
الله ﷺ بذلك المال ويحول بيده فيه ويقول .

« ما على عثمان ما فعل بعد اليوم » !

ثم يجول بيده فيه من جديد ويتسهم مسروراً ويقول :
« اللهم ارض عن عثمان ، فأبى عنه راض » .

وكم تبرع المتبرعون ، وتصدق المتصدقون ، وكم في القرآن الكريم
من آيات كريمة في فصل الصدقة ، وقليل منها ذكرى لمن قرأ وتدبر
أو ألقى السمع وهو شهيد .

﴿ مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع
سنابل في كل سنة مائة حبة ، والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم ،
الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا من ولا أدى ،
هم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾^(١) .

﴿ وما تنفقوا من خير يوف إليكم وأنتم لا تظلمون ﴾^(٢) !

﴿ الذين ينفقون أموالهم باسئيل والنهر سرّاً وعلانية فلهم أجرهم
عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾^(٣)

وكم في الأحاديث الشريفة من أحاديث في الحث على الصدقة
ومفضلها . وسوقها بعضها ليكون نبراساً من الهدى النبوي الكريم
عن بن مسعود رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال : « لا حسد
إلا في اثنين : رجل آتاه الله مالاً فسطه على هلكته في الحق ، ورجل
آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها » متفق عليه

(١) لقعة ٢٦١ ، ٢٦٢

(٢) لقعة ٢٧٢

(٣) لقعة ٢٧٤ .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :
« ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان ، فيقول أحدهما
لنعم أعط متفقاً قطعاً ، ويقول الآخر : اللهم أعط ممسكاً تلفاً » متفق
عليه .

وعنه أن رسول الله ﷺ قال :
« قال الله تعالى : أفق ي ابن آدم يفق عليك » متفق عليه .
وكل ذلك يدل على أن من لبلاهة فهم الرهد في الجو الإسلامي
بهذه المفهوم الذي يحاول المزيّفون أن يتحدثوا عنه ، وهو التجرد من
المال ، والتخلص منه . ومفهوم بشر للرهد لا يتنافى مع بصيخته
لصديقه :

الزم السوق !

ي الزم على غرار أبي بكر وعثمان وعد الرحمن بن عوف وسفيان ،
وأبي حنيفة وغيرهم رضي الله عنهم .
ثم ها هو ذا أبو الحسن الشاذلي :
كان من كبار المزارعين !
نقد كانت له مزرع بالجمع لا سررعة بالأفراد
وكان يقتنى الحيل ، ويتخيرها ويركبها .
وكان بيته مفتوحاً لكل طارق .
وكان من دعائه :
اللهم وسع على رزقي هي ديارى ، ولا تحبسني بها عن أخرى

وكان من دعائه أيضاً :

اللهم اجعلها في أيدينا ، ولا تجعلها في قلوبنا .

وفي حربه يقرأ الإنسان :

« يا لطيف ، يا ررق ، يا قوى ، يا عزيز ، لك مقاليد السموات
تبسط الرق لمن تشاء وتقدر ، فابسط لنا من الرق ما توصلنا به إلى
رحمتك وأعنا بلا سب ، وجعل سب المعنى لأوليائك » وابن
عطاء الله السكسري يقض ما يلي :

« قال بعض المشايخ : كان رجل بالمغرب من الراهدين في الدنيا ،
ومن أهل الجد والاجتهاد ، وكان عيشه مما يصيده من البحر ، وكان
الذي يصيده يتصدق ببعضه ويتفوت ببعضه ، فراد بعض أصحاب
هذا الشيخ أن يسافر إلى بلد من بلاد المغرب ، فقال له هذا الشيخ :
إذا دخلت إلى بلد كذا فاذهب إلى أخي فلان ، فأقرئه مني السلام
وتطلب لدعاء مني ، فإنه ولي من أولياء الله تعالى .

قال : فسافرت حتى قدمت تلك البلدة ، فسألت عن ذلك الرجل ،
فدلت على دار لا يصح إلا للمموك ، فتعجبت من ذلك وحملته فقبل
لي هو عبد السلطان ، فأرداد تعجبي فعد ساعة ، وإذا هو آت في
أعصر ميس ومركب ، وكأنا هو ملك في موكة

قال : فأرداد تعجبي أكثر من الأول

قال : فهمت بالرجوع ، وعدم الاجتماع به ، ثم قلت : لا يمكنني
مخالفة الشيخ .

فاستأذنت فؤدنى ، فلما دحيت رأيت ما هالنى من العبيد والخدم
والشارقة الحسنة ، فقلت له :

أخوك فلان يسلم عليك .

وقال جئت من عنده ؟

قلت : نعم .

قال : إذا رجعت إليه قل له :

إلى كم اشتعالك باندنيا ؟ وإلى كم إقبالك عليها ؟ وإلى متى لا تنقطع
رغبتك فيها ؟

فقلت : هذا والله أعجب من الأول ، فلما رجعت إلى الشيخ قال :

اجتمعت بأخى فلان ؟

قلت : نعم !

قال : فما الذى قال لك ؟

قلت : لا شيء !

قال : لابد أن تقول لى !

فأعذت عليه ما قال ، فبكى طويلاً وقال :

صديق أخى فلان ، هو غسل الله قلبه من اندنيا ، وجعلها فى يده

وعلى ظاهره ، وأنا أحدها من يدى ، وعدى إليها بقايا التصنع !!

وبناء على كل ذلك يحب أن نقرأ النصوص التى ترد عن الرهد فى

صوء ما ذكرنا . ويتلخص فى .

١- ألا تستعد الشهوات الإنسان .

٢- أن يتحرر الإنسان منها حتى ولو كان من أصحاب الملايين .

٣- أن يكون من المتحققين بقوله تعالى :

﴿لَكَيْلًا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ ، وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾^(١) .

وكل النصوص لتي تذكر عن بشر يجب إذن أن تفهم على هذا
لأساس .

وعن بشر تأتي النصوص التالية :

قال عبد الصمد بن حميد : سمعت عبد الوهاب يقول .

« ما رأيت أحداً أقدر على ترك شهوة من بشر الحامى » .

وكان حمزة الرار يقول : ما رأيت أحداً من الرهاد إلا وهو يدم لذي ،

ويأخذ منها غير بشر بن الخارث ، فإنه كان يدمها ويقرفها^(٢) .

وعن أحمد بن النعس قال : سمعت أبا نصر يشرّ يقول - وقد قال

له رجل يا أبا نصر ما أشد حب الناس لك ؟ فملط عليه ذلك ، ثم

قال : ولك عافاك الله

قال : وكيف ذلك ؟

قال : دح لهم ما فى أيديهم .

فذكرت ذلك لأبى نصر فقلت .

(١) الحديد : ٢٣

(٢) من قوت الشجرة مشرب ماءها . وقوف حدد الرجل أى اقتنعه

عن ابن عمر رضى الله عنه قال : أتى رجل إلى النبي ﷺ فقال :
يا رسول الله دلني على عمل إذا عملته أحنى الله من السماء ، وأحبتي
الناس من الأرض ، قال : فقال له النبي ﷺ : « زهد في الدنيا
يحبك الله ، وزهد فيما هي أيدي الناس يحبك الناس » فرأيت أبا نصر
قد فرح به إذ وافق قوله سنة رسول الله ﷺ

وقال احسين : وسمعت علي بن عنام يقول : كان بشر بن الحارث
يتقدمهم في الزهد ، ويشاركهم في العزم ، أو يتقدم غيهم .

وقد كان بشر بحبته وفطرته زاهداً ، وعن مظهره وسوكه في
الأكل والملبس نورد النصوص الآتية :

قال عبد الله بن أحمد بن حنبل : رأيت بشر بن الحارث مصرفاً من
جارية مرت عيباً ، فقممت لأنظر إليه ، فرأيت عليه ثياباً متواضعة
أظن كان عليه فرو - وإذا رجل مهيب طويل الشعر ، أبيض لرأس
والنحية ، وفي رأسه ولحيته شيء من سواد ، أحسب ألباض أكثر من
السواد ، لا يحضب بشيء ، أحسب عليه إزاراً إلى هاهنا قصير

وعن إبراهيم الحربي ، عن سديمان بن حرب قال : مكثت دهرًا
أشتهي أن أرى بشر بن الحارث ، فلم يقدر لي - أو كما قال -
قال : فحرحت يوماً من مرلي إلى المسجد ، فإذا أنا برجل - أو
قال بشيخ - كثير الشعر ، طويل الشارب عليه أصم - أحسبه
قال مرقعة - معه حراب ، وجهه إلى الخائط ، فهو يدحلي يده في
الجراب فيخرج منه كسراً فيأكل فقلت له : أنت من الجرس ؟ قال :
لا ، قلت : فأنت من حراسك ؟ قال : أنا أوى بعداد ، قت .

فما جاء بك إلى هنا ؟ قال ، حئت إليك لأسمع منك حديثاً حسناً
 في الموقف ، قلت ، الاسم ؟ قال ، وما تصنع باسمي ؟ قلت :
 أشتبهى أعرف اسمك ، قال : أنا أبو نصر ، قلت ، الاسم أريد ؟
 قال ، ليس أحرك باسمي ! وإن أحبرتك باسمي لم أسمع منك شيئاً !
 قلت : أحسبى باسمك فإن شئت فاسمع وإن شئت فلا تسمع ،
 قال ، أنا بشر من الخارث ، قلت : الحمد لله الذي لم يمتني حتى
 رأيك - أو كما قال - . ووقف عليه فجعلت أنكي ويكي ، ثم
 جلست بين يديه ، فتحدثنا ساعة ثم قلت له : يا أبا نصر ، أردت
 أن تدخل بلدنا أنا فيه تنزل عدى ؟ قال : ليس لي مقام ، إنما
 كنت بعبادان ، فقلت : يا أبا نصر ، كئيب كلها بين يديك قال :
 السلام عليكم ، ويكي وبكىت ومضى !

وأما عن أحاديثه في الزهد فهي كثيرة ، منها :

قال أحرى حالد الواسطي عن محمد بن عمرو ، عن يحيى بن
 عبد الرحمن ، عن أبي واقد الليثي قال :

« تابع الأعمال ، فلم تجد عملاً أبلغ في طلب لآخره من الرهادة
 في الدنيا » وقال :

« الزهد ملك لا يسكن إلا قلباً مخلى » .

ويقول إبراهيم بن عبد الله ، سمعت بشر بن خراث يقول

« من حرم المعرفة لم يجد للطاعة حلاوة ، ومن لا يعرف ثواب
 الأعمال ثقل عليه في جميع لأحوال ، ومن رهد في الدنيا على

حقيقة كانت موته حصفة ، ومن رهب له الرضا فقد بلغ أفضل الدرجات !

قال : « يسعى لنا أُنْحب هذه الدار ، لأنها دار يعصى الله فيها ، والله لو لم يكن فيها إلا أنا أحبها شيئاً أبغضه الله عز وجل فكما ! »
وقال : « لو لم تبغض الدنيا إلا لأن الله عز وجل يعصى فيها كان ينبغي لنا أن نبغضها ! »

ويحدث أبو العباس محمد بن الحسن الحشاش ، قال : أخبرنا أحمد بن محمد بن صالح ، قال حدثنا محمد بن عبدون قال : حدثنا حسن المسوحى قال : رآني بشرب الحارث يوماً بارداً ، وأنا أرتعد من البرد ، فنظر إلى وقال :

قصع الليالي مع الأيام في حلق

واليوم تحت رواق الهم والقلق

أحسرى وأجدر بي من أن يقال غداً

إني التمسيت الغنى من كف مخلوق

قالوا : رصيت هذا ؟ قلت : القنوع غنى

ليس الغنى كثرة الأموال والورق

رضيت بالله في عسرى وفي يسرى

فلمست أسلك إلا واضح الطرق

وعن وصف صاحب الدنيا يقول القاسم بن مهدي سمعت بشراً يقول .

« ما أحقى صاحب الدنيا وأصفق وجهه ! » -

ويقول إبراهيم بن يعقوب : قال بشر بن الحارث :

« من سأل الله تعالى الدنيا ، فيما يسأله طول الوقوف ! »

وقال أبو جعفر البرازي : سمعت بشر بن الحارث يقول :

« قل لمن طلب الدنيا تهياً للذل .. »

ومثل بشر بن الحارث عن القناعة فقال :

« لو لم يكن في القناعة شيء إلا التمتع بعز القناعة لكان ذلك
يحزى ثم أنشأ يقول :

أفادتني القناعة أي عر	ولا عز أعر من القناعة
فحد منها لمسك رأس مسال	وصير بعدها التقوى بضاعة
نحز حالي ، تعني عند حيل	ونسعد في الجبال بصير ساعة

ثم قال :

« مروءة القناعة أشرف من مروءة النذل والبطاء » ويقول عيسى بن
عبد الله بن أحمد الساجي حدثني أبي قال : سمعت بشر بن الحارث
يشد :

أقسم بالله لرصح النوى	وشرب ماء القلب المالح
أعز لإسك من حرصه	ومن سؤال الأوجه الكاخنة
فاسعن باليأس بكر د غنى	محتطاً بالصفقة الراجعة
اليأس عر والتقى مؤدد	ورغبة النفس لها فاصحة
من كانت الدنيا به يره	عائها يوماً له داحجة

ويختتم الحديث عن بشر بقوله :

« عز المؤمن استعاذه عن الناس ، وشرفه قيامه بالليل » !

ويستكمل الآن خطوات الطريق في صورة موجزة ، فقد سبق أن كتبنا باستفاضة في كل مقام من مقاماته ، ونكتفي هنا بإيراد ما روى عن بشر في ذلك .

التوكل :

ليس التوكل من التوكل على الله ليكفي ، ولو حلت هذه الصفة بقلوب المتوكلين لصحوا إلى الله بالتوبة منها ، بل التوكل على بقله الكفاية من الله وبصدقه فيما ضمن .

وقال بشر - التقيم برحل من المتصوفة فقال لي يا أبا نصر ، انقبضت عن أحد البر من يد المخلق ، لإقامه الجاه ، وإن كنت متحققاً بالزهد ، منصرفاً عن الدنيا ، فخذ من أيديهم ليسمحي جاهك عندهم ، وأخرج ما يعطونك إلى الفقراء وفرقه عليهم ولا تدق منه شيئاً ، وكن بعقد التوكل تأخذ قوتك من الغيب » .

فاشتد ذلك على أصحاب بشر ، فقال بشر للرجل .

جزاك الله خيراً عسى .

ولكن اسمع أيها الرجل الجواب :

الفقراء ثلاثة : فقير لا يسأل ، وإن أعطى لا يأخذ ، فذاك من الروحانيين ، إذا سأل الله أعطاه ، وإن أقسم على الله أبر قسمه

وفقير لا يسأل ، وإن أعطي فيل ، فذاك من أوسط القوم عقده التوكل
والسكون إلى الله تعالى ، وهو من توضع له الموائد في حظيرة نقدر :
وفقير اعتقد الصبر ومداومة الوقت ، فإذا طرقت الحاجة حرج إلى
عبيد الله وقلبه إلى الله بالسؤال ، فكفارة مسأله صدقة في السؤال
فقال الرجل : رضيت ، رضي الله عنك .

الصبر :

قال بشر :

« الصبر الحميل هو الذي لا شكوى فيه من الناس »

الشكر والصبر :

وقال بشر ما أعلم أحداً إلا مبتى ، رجل بسط الله له رزقه فلينظر
كيف شكره ؟

ورجل قبض رزقه فلينظر كيف صبره ؟

الحبة :

قال بشر : « ليس من المروءة أن تحب ما يبعث حبيك » .

وقال : الحبة دل في عز الخبوء ، ومشاهدة المحبوب مع امتناع
المطلوب » .

وقال : القرب من الأعيار بعد من الحبيب ، والأنس بهم وحشة منه

وقال : حقيقة الحبة ترك محالمة المحبوب بكل حال ، والتسليم له في
الحال والمآل .

وقال . تدعى الأمم يوم القيامة بأنبيائها ، ويقال للممحين . يا أولياء
الله ، فكاد قلوبهم تنحلج فرحاً ،

الفضل الخامس بشرو و الكرامات

لقد هوى المؤرخون لبشر كرامات عدة ، وليس بغريب أن يحرم الله بشراً بالكرامات !

وانما الغريب هو موقف بعض الناس في العصر الحاضر من استبعاد الكرامات ، مع أن الكثير منها مذكور في القرآن الكريم ، والكثير منها مذكور في كتب السنة الصحيحة !

ولقد سبق أن كتبنا عن بعض ما ذكره القرآن من ذلك ، والآن ننقل من بعض ما ثبت عن الصحابة رضوان الله عليهم ، وإن الذي نقله من ذلك إنما هو سر يسير مما أثبتته الكتب عنهم رضوان الله عليهم ، ومن أراد الاستزادة في ذلك فعليه بمقدمة كتاب « جامع كرامات الأولياء » فقد ذكر فيه مراجع لهذا الموضوع تلعب الأربعين كتاباً .

وهي المقدمة ذكر الإمام يوسف البهاسي طائفة لا بأس بها من لكرامات ، وبحوثاً نفيسة بشأنها .

وقد ذكر الإمام الماوي كثيراً من انكرامات في مختلف كتبه عن مختلف المصادر ، وكذلك الإمام اشعراني في كتب كثيرة مما ألف ،

ومن قبلهم ذكر الإمام البحارى ، والإمام مسند ، وكتب السنة المعتمدة
كثيراً من الكرامات التى وقعت لسائفين والتى وقعت لصحابة .

وأهل السنة على وجه العموم شعارهم فى هذا الموضوع :

وأثنى للأولياء الكرامة ومن نفاها فأنبذ كلامه

وهم فى ذلك يتابعون القرآن الكريم الذى تحدث عن كثير من
الكرامات .

ومن سير الصحابة نأخذ ما يلى من كرامات أبى بكر الصديق
رضى الله عنه . أخرج الشيخان عن عبد الرحمن بن أبى بكر رضى
الله عنهما ، أن أبابكر جاء بثلاثة - يعنى أضيافاً - وذهب يتعشى
عند النبى ﷺ ، ثم لبث فجاء بعد ما مضى من الليل ما شاء
الله ، فقالت له امرأته : ما حبسك عن أضيافك ؟ قال أو
ما عشتهم ؟

قالت : أبوا حتى تجىء .

قال : والله لا أطعمه لداً ، ثم قال : كلوا !

فقال قائلهم : وأيم الله ما كنا نأخذ من لقمة إلا ربا من أسفلها
أكثر منها ، فشبعنا وصارت أكثر مما كانت قبل ، فطر إليها أبو بكر
فإذا هى وأكثر ، فقال لامرأته ، يا أخت بنى فراس ما هذا ؟ قلت :
لا وقرة عينى لى الآن أكثر مما كانت قبل ذلك ثلاث مرات ، فأكل
منها أبو بكر ، وقل إنما كان ذلك من الشيطان - يعنى يمينه -
ثم حملها إلى رسول الله ﷺ فأصبحت عنده ، وكان يسا وبين

قوم عهد، فمضى الأجل، ففترقنا اثنا عشر رجلاً مع كل رجل منهم ناس - الله أعلم كم مع كل رجل - غير أنه بعثهم فأكلوا منها أجمعون!

وصح من حديث عروة بن زبير عن عائشة رضي الله عنها : أن أبا بكر لصديق رضي الله عنه كان يحلها حداداً^(١) عشرين وسقاً من ماله بالعابة ، فلما حضرته الوفاة قال :

والله يا بني ما من الناس أحب إلي عني بعدى منك ، ولا أعز علي فقراً بعدى منك ، وإنني كنت تحلتك جدد عشرين وسقاً ، فلو كنت حرتي كان لك ، وإنما هو اليوم مال وارث ، وإنما هما أخواك وأختاك ، فاقسموه على كتاب الله .

قالت عائشة : يا أبت والله لو كان كذا وكذا لتركته ، إنما هي أسماء فمن الأخرى ؟

فقال أبو بكر . دو بطن أراها جارية ، فكان ذلك .

قال التاج السبكي : وفيه كرامتان لأبي بكر رضي الله عنه .

إحداهما إخباره أنه يموت في ذلك الموضع حيث قال : « وإنما هو اليوم مال وارث »

والثانية : إخباره بمولود يولد له ، وهي جارية

(١) الحداد : الصرام وهو قطع شعر النحيل .

والسر في إظهار ذلك استطابة قلب عائشة رضي الله عنها في استرجاع ما وهبه لها ولم تقتصه ، وإعلامها بمقدار ما يحجبها لتكون على ثقة ، فأحبرها بأنه مال ورث ، ولما معها أخوين وأختين ، وبدل على أنه قصد استطابة قلبها مامهده "ولا من أنه لا أحد أحب إليه غنى بعده منها .

وقوله : إنما هما أخواك وأختاك : أي ليس ثم غريب ، ولا ذو قرابة نائية . وفي هذا من الترفق ما لا يحصى ، فرضى الله عنه وأرضاه ! . ومن أصحاب الكرامات . حجر بن عدي رضي الله عنه المدفون هو وأصحابه في قرية عذراء من قرى الشام .

حيثما قتلوا في خلافة معاوية رضي الله عنه ، وعندهم قال العرف بالله سيدى محمد الحنفى في حاشيته على الجامع الصغير عند قوله عليه السلام : « سيقتل بعداء أناس يغضب الله هم وأهل أسماء » .

كان حجر يحرص على الوضوء والطهارة جداً ، ولما حبس احتلم فطلب ماء من السجن ليغتسل به ، فقال له : ليس عدى إلا قدر شربك !

فقال له : ادفعه لى لأطهر به !

فقال له : لا أفعل ، لئلا تموت عطشاً ، فيقتلنى من أمرى بسجنتك ، فدعا الله تعالى بنزول المطر ، فخرق وتصهر !

فقال له المسجونون معه : ادع الله ليفرج عا وإياك

فقال : لا أحب إلا ما أنا فيه ، لكونه بإرادة ربي وقدرته ، وإنما دعوت للمطر لتعفقه بالعبادة ، قال الشيخ الحفي : وهكذا شأن المقرين !

ومن أصحاب الكرامات : الحسين بن علي رضي الله عنهما ! قال الإمام الشبلي باعلوى في امشرع المروى من كرامات الحسين رضي الله عنه :

ما روى عن ابن شهاب الزهري قال : لم ين من قتلة الحسين أحد إلا وعوقب في الدنيا ، إما بالقتل ، أو بالعمى ، أو سواد الوجه ، أو زوال الملك في مدة يسيرة .

ومنها أن عبد الله بن حصين ناداه وقت محاربتهم له ، ومنعهم الماء عنه . يا حسين ألا تنظر إلى الماء كأنه كبد السماء ؟ والله لا تدوق منه قطرة حتى تموت عطشاً ، فقال الحسين : اللهم اقتله عطشاً ، فكان ذلك الحيث يشرب ماء ولا يروى حتى مات عطشاً ! أ

ومن أصحاب الكرامات : حمزة الأسلمي رضي الله عنه .

أخرج البحري في التاريخ ، والبيهقي وأبو نعيم عن حمزة الأسلمي رضي الله عنه قال :

كنا مع النبي ﷺ في سفر ، فتصرها في ليلة ظمأ فاضأت أصابعي حتى جمعو عليها ظهرهم وما هلك منهم ، وإن أصابعي لتتير !

ومن أصحاب الكرامات : عباد بن بشر ، وأسيد بن حضير رضي الله عنهما .

أُخرج ابن سعد والحاكم وصححه البيهقي وأبو يعيم من وجه آخر ،
 عن أنس رضي الله عنه قال : كان عماد بن بشر ، وأسيد بن حضير
 عند رسول الله ﷺ في حاجة حتى ذهب من الليل ساعة ، وهي
 ليلة شديدة الظلمة ، خرجا ويد كل واحد منهما عصا ، فأضاءت له
 عصا أحدهما ، فمشيا في ضوئها ، حتى إذا افرقت بهم الطريق
 أضاءت للآخر عصاه فمشى كل واحد منهما في ضوء عصاه حتى
 بلغ أهله !

وأخرج البخاري عن أنس رضي الله عنه : أن رجلين من أصحاب
 النبي ﷺ خرجا من عنده ذات ليلة متعبين ، ومعهما مثل المصباحين
 بضئان بين يديهما ، فلما افرقا صار مع كل واحد منهما حتى أتى أهله !!
 وإذا عدا بعد ذلك إلى بشر ، فإيا لا يحب أن يسترسل في موضوع
 الكرامات ، وإنما يحب أن يورد كرامتين له فقط .

أما الأولى فهي ما يقوله أبو عبد الله القاضى

حدثني أبي قال كان عددا بعداد رجل من التجار صديقاً لي ،
 وكان كثيراً ما أسمعُه يقع في الصوفة

قال : فرأيتُه بعد ذلك يصحبهم ، فأنفق عليهم جميع ما ملكت !

قال : فقلت له : أليس كنت تبغضهم ؟

قال : فقال لي : ليس الأمر على ما توهمت .

قلت له : كيف ؟

قال صليت الجمعة يوماً وحررت فرأيت بشر بن الحارث الحافى
 يخرج من البيت مسرعاً قال : فقلت في نفسي انظر إلى هذا

الرجل الموصوف بالزهد ليس يستقر في المسجد ، قال : فتركت حاجتي ، فقلت : أنظر أين يذهب قال : فتبعته فرأيتَه تقدم إلى الحجاز واشترى بدرهم خبزاً ، قال : فتقدم إلى الشواء ، قال فرادني عليه عيصاً ، قال : وتقدم إلى اخلاوي فاشترى فلودجاً بدرهم !

فقلت في نفسي : والله لأقصن عيه خير يجلس ويأكل قال . فخرج إلى الصحراء ، وأنا أقول : يريد المحصرة والماء ، قال : فما زال يمشي إلى العصر وأنا حمله ، فدخل قرية ، وهي القرية مسحد وفيه رجل مريض ، قال : فجلس عند رأسه وجعل يلقمه ، قال : فقلت لأنظر إلى القرية ، قال : فبقيت ساعة ثم رجعت ، فقلت للعليل أين يشر ؟

قال : ذهب إلى بغداد .

قال : فقلت وكم يبني وبين بغداد ؟

فقال : أربعون فرسخاً .

فقلت : يا لله وإنا إليه راجعون ، أين عملت بنفسي ، وليس عندي ما أكرى ، ولا أقدر على المشي .

قال : فجلست إلى الجمعة القابلة ، قال : فحاء بشر في ذلك الوقت ومعه شيء يأكله المريض ، فلما خرج قال له العليل : يا أما نصر هذا الرجل صحتك من بغداد ، وبقي عندي منذ الجمعة ، فردّه إلى موضعه !

قال : ففطر إلى كالمعصب وقال : لم صحتني ؟

قال : فقلت : أعطأت .

قال : قم فامشي .

قال : فمشيت إلى قرب المغرب

قال : فما قربنا قل لي : أين محلك من بغداد ؟

قلت : في موضع كذا .

قال : اذهب ولا تعد .

قال : فبت إلى الله عز وجل وصحبتهم وأنا على ذلك !!

هذه واحدة .

والثانية : تعق رجل بامرأة ويده سكين ، لا يدبره أحد إلا عقره ،
وهي تصيح في يده ، فمر به بشر فحك كتفه فسقط الرجل وحلصت
المرأة ، فسألوه : ما حالك ، فقال :

ما أدري ، ولكن حاكني شيخ وقال : الله ناظر إليك هوقعت من
هيبته ، وحم الرجل من وقته فمات اليوم السابع !

ولا يحب أن نحتم هذا الفصل دون أن نورد كلمة للإمام القشيري
عن الكرامات إنه يقول :

وبالجملة فالقول بجواز ظهورها على الأولياء واجب ، وعينه جمهور
أهل المعرفة ، ولكثرة ما تواتر بأحاسيس الأحبار والحكايات صار العنم
بكونها وظهورها على الأولياء في الجملة علت قروياً انتهى عنه الشكوك ،
ومن توسط هذه الطائفة ، وروايت عنه حكاياتهم وأحاديثهم م تبق له
شبهة في ذلك على الجملة .

قال : ومن دلائل هذه الجملة نص القرآن في قصه صاحب سليمان
عليه السلام حيث قال :

﴿أنا آتيتك به قبل أن يرتد إليك طرفك﴾^(١)

ولم يكن نبياً .

والأثر عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه صحيح أنه قال : « يا سارية الجبل » في حال خطبته يوم الجمعة ، وتبلغ صوت عمر إلى سارية في ذلك الوقت حتى تحرروا من مكامن العدو من الجبل في تلك الساعة !

قال : فإن قيل : كيف يجوز إظهار هذه الكرامات الرائدة في المعاني على معجزات الرسل ، وهل يجوز تفصيل الأولياء على الأنبياء عليهم السلام ؟

قيل : هذه الكرامات لاحقة بمعجزات نبينا ﷺ ، لأن كل من ليس بصادق في الإسلام لا تظهر عليه الكرامة ، وكل من طهرت كرامته على واحد من أمته فهي معدودة من جملة معجزاته ، إذ لو لم يكن ذلك الرسول صادقاً لم تظهر على يد من تابعه الكرامة .

وأما رتبة الأولياء فلا تبلغ رتبة الأنبياء عليهم السلام لإجماع المعتقد على ذلك

قال : ثم هذه الكرامات قد تكون إجابة دعوة ، وقد تكون إظهار طعم في أوان فاقة من غير سبب ظاهر ، أو حصول ماء في رمان عطش ، أو تسهيل قطع مسافة في مدة قريبة ، أو تخليصاً من عدو ،

(١) التل : ٤٠

أو سماع خطب من هاتف ، أو غير ذلك من هون الأفعال الساقيمة
للعادة .

قال : واعلم أن كثيراً من المقدورات يعلم اليوم قطعاً أنه لا يحور
أن يظهر كرامة الأولياء ، وبضرورة أو شبه ضرورة بعدم ذلك ، فمنها
حصول إنسان لا من نوب ، وقلب حماد بهيمة أو حيواناً ، وأمثال
ذلك كثير .

قال : الولي من توات صاعاته ، ومن تولى الحق حفظه وحراسته ،
فلا يحق له الحذلان الذي هو قدرة العصيان ، وإنما يديم توفيقه الذي
هو قدرة الصاعة ، قال الله تعالى : ﴿ وَهُوَ يَتَوَسَّى الصَّالِحِينَ ﴾ (١) ولا يكون
معصوماً كالآسياء ، بل يكون محفوظاً حتى لا يصير على الذنوب .
حكى عن سهيل بن عبد الله أنه قال :

من زهد في الدنيا أربعين يوماً صدقاً من نفسه محققاً في ذلك
ظهرت له الكرامات ، ومن لم تظهر له فعدم الصدق في زهده ،
فليس لسهيل : كيف تظهر له الكرامة ؟

فقال : يأخذ من يشاء كما يشاء من حيث شاء !

واعلم أن من أجل الكرامات التي تكون للأولياء ، دوام التوفيق
للطاعات ، والحفظ من المعصية والمحالقات ؟

انتهى كلام القسيري رحمه الله !

الفصل السادس الدعاء

لقد حث الله سبحانه وتعالى عباده على أن يلحثوا إليه بالدعاء :
﴿وَقَالَ رَبِّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾^(١)
﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾^(٢) .
﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾^(٣) .
ورسول الله ﷺ حث كثيراً على الدعاء .
وكان صلوات الله وسلامه عليه مثلاً كريماً واصحاً للاحتذاء إلى
الله تعالى عن طريق الدعاء ، لقد كان يدعو لنفسه ولأُمته وللمسلمين .
وقد كان يدعو مع إحكام كل أموره وتسييره تدييراً محكماً في كل
شأن من شؤنه .
ولقد كان يدعو مع إحكام الوسائل التي تقرب من الله تعالى وتؤدي
إلى استجابة الدعاء .

(١) غافر : ٦٠

(٢) البقرة : ١٨٦

(٣) الأعراف : ٥٥

وأن الاستجابة الدعاء وسائل تؤدي إليها ، وفي أكثر الأحيان يسيئ
الناس ذلك ويدعون دون الأخذ في الأسباب التي تؤدي إلى الاستجابة ،
ثم يتساءلون قائلين :

إن الله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ادعوني أستجب لكم﴾^(١) .

فما لنا ندعو فلا يستجاب لنا ؟

ولقد سألوا مرة الإمام إبراهيم بن أدهم هذا السؤال فرد عليهم
قائلاً :

« لأن قلوبكم ماتت بعشرة أشياء : أولها :

تكم عرفتم الله ولم تؤدوا حقه .

وقرأتم كتاب الله ولم تعملوا به .

وادعيتم عبادة الشيطان واليشمونه .

وادعيتم حب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وتركتم أثره

ومستنه .

وادعيتم حب الجنة ولم تعملوا لها .

وادعيتم خوف النار ولم تنتهوا عن الذنوب .

وادعيتم أن الموت حق ولم تستعدوا له .

(١) غافر : ٦٠ .

واشتغلتم بعيوب غيركم وتركتم عيوب أنفسكم

وتأكلون رزق الله ولا تشكرونه .

وتدفنون موتاكم ولا تعتبرون .

والإمام إبراهيم بن دهم يتناسق في ذلك مع القرآن الكريم والسنة
اسوية الشريفة .

فلقد بين رسول الله ﷺ الوسائل التي تؤدي إلى استجابة الدعاء ،
مها :

طيب المطعم .

فعن ابن عباس فيما أخرجه الخافظ ابن مردويه قال :

تليت هذه الآية عند النبي ﷺ

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالاً طَيِّباً﴾^(١) فقام سعد بن
أبي وقاص فقال :

يا رسول الله . ادع الله أن يجعلني مستجاب الدعوة فقال :

يا سعد أصب مضعمك تكن مستجاب الدعوة ، والذي نفس محمد
بيده إن الرجل ليقدف للقمعة الحرام في خوفه ما يتقبل منه أربعين
يوماً ، وأيما عبد بيت حمة من لحت وألها فالأول به .

ومنها الحديث القدسي الشريف الذي يرسم الطريق إلى الاستجابة
في وضوح ، وقد رواه الإمام البخاري .

(١) البقرة ١٦٨

« من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب ، وما تقرب إلى عبدي بشيء أحب إلي من أداء ما افترضته عليه ، وما زال عبدي يتقرب إلي بالوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطئ بها ، ورجله التي يمشي بها ، ولئن سألني لأعطينه ، ولئن استعاذ بي لأعيذنه » .

وإن من الأمور التي تسمع استجابة الدعاء بل تؤدي إلى الكوارث ما يرتكبه الإنسان من المعاصي !

يقول تعالى :

﴿ وما أصابكم من مصيبة فَمَا كَسَبَ أَيْدِيكُمْ ﴾^(١)

ويقول سبحانه :

﴿ مَا أَصَابَكُم مِّنْ حَسَنَةٍ مِّنْ لِّلَّهِ وَمَا أَصَابَكُم مِّنْ سَيِّئَةٍ مِّنْ نَّفْسِكَ ﴾^(٢)

ويقول تعالى :

﴿ وَلَوْ يَوَاحِدُكَ اللَّهُ أَلَسَ بِمَا كَسَبُوا مَا يَرْكُ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ ﴾^(٣)

ويقول سبحانه :

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ، وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾^(٤) .

(١) العنكبوت : ٣٠

(٢) النساء : ٧٩ .

(٣) طه : ٤٥

(٤) الأعراف : ٩٦

وقال تعالى .

﴿وَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ يَوْشَاءَ أَصْنَانَهُمْ
بِذُنُوبِهِمْ﴾^(١) .

ويقول رسول الله ﷺ فيما رواه لطيفي وابن عساكر .

« والذى يعصى بيده : ما من حدث عود ، ولا عثرة قدم ،
ولا احتلاح عرق ، إلا يذب وما يعصو الله عنه أكثر » .

والطريق اذن في استحابة الدعاء إنما هو البدء بترك المعاصي ، وهي
ذلك يقول إمامنا الكبير بشر :

« الدعاء ترك الذنوب » .

وترك الذنوب ليس أمراً سلبياً ، لأن ترك الفرائض ذنب ، فترك
الذنوب يتضمن أداء الفرائض ، وترك الواجبات ذنب ، فترك الذنوب
يتضمن القيام بالواجبات .

ويتهى الأمر بأن ترك الذنوب معناه الاستقامة ، فإذا ما وصل
إلى الإنسان إلى الاستقامة فقد أصبح في رعاية الله وفي عنايته ، يستجيب
له إذا دعاه ، ويعينه إذا استعاذ ، وفي ذلك يقرب الله تعالى :

﴿إِنَّ الدِّينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا
وَلَا تُحْزِنُوا وَأُبَشِّرُوا بِبِأَجَلٍ أَمْتٍ كُنتُمْ تَوْعَدُونَ نَحْنُ أَوْلَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ

(١) الأعراف ١٠٠

الدنيا وفي الآخرة ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ولكم فيها ما تدعون ،
نزلًا من عفور رحيم .

ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين .
ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك
وبينه عداوة كأنه ولي حميم .

وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم ﴿١﴾ .
ويقول تعالى :

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ،
أُولَئِكَ أَصْحَابُ لَحْظَةِ الْخَالِدِينَ فِيهَا جزاء بما كانوا يعملون﴾ (٢)

ويقول . ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا مِمَّنْ ذَكَرَ أَوْ أُذِنَ لَهُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَهُ
حَيَاةً طَيِّبَةً ، وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٣) .

ويقول : ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ
الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ،
لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْقَوْرُ الْعَظِيمُ﴾ (٤) .

ولقد اتحد بعض الناس الوسائل لاستجابة الدعاء ووقفهم الله
إليها .

(١) قصص ٣١ - ٣٥

(٢) الأحقاف : ١٣ - ١٤ .

(٣) النحل : ٩٧ .

(٤) غفران : ٦٢ - ٦٤

« روى أحمد ومسلم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ :
 « رب اشعث أغبر مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبره »
 ورواه الحاكم وأبو نعيم بنفظ :

ويتحدث بشر عن الحصر عليه السلام مرة أخرى فيقول
 « رب ذى طمرين^(١) لا يؤنه به لو أقسم على الله لأبره » .
 واستجابة الدعاء وتيسير الأمور كما يكون للأفراد يكون للأمم إذا
 استقامت ، يقول تعالى :

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ
 وَالْأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسُونَ ﴾^(٢) .
 وللدعاء عبادة ومن هنا يقول بشر :

« الدعاء كفارة الذنوب » .

وبشر أخذ هذا من الحديث القدسي التالي :

عن حابر بن عبد الله ، رضى الله عنهما عن النبي ﷺ قال :

« يدعوا الله المؤمن يوم القيامة حتى يوقفه بين يديه ، فيقول . عدى
 بى أمرت أن تدعوى ، ووعدتك أن أستجيب لك ، فهل كنت
 تدعونى ؟ فيقول : نعم يا رب

فيقول . أما أنت لم تدعنى بدعوة إلا استجبت لك ، ليس دعوتنى
 يوم كذا وكذا لعم ربك أن اخرجك منك ففرحت عنك ؟
 فيقول : نعم يا رب .

(١) الصخر يكسر الصلابة . الثوب الخشن اليابس

(٢) الأعراف : ٩٦ .

فيقول : إني عجلتها لك في الدنيا .
ودعوتني يوم كذا وكذا لعلم ربك أن أخرج عنك فلم تر عرجاً ؟
قال : نعم يا رب .

فيقول : « إني ادخرت لك بها في الجنة كذا وكذا »
ودعوتني في حاجة أن أقصيها لك في يوم كذا وكذا فتقصيها ؟
فيقول : نعم يا رب .

فيقول : إني عجلتها لك في الدنيا .
ودعوتني يوم كذا وكذا في حاجة أقصيها لك فلم تر قصاء ؟
فيقول : نعم يا رب .

فيقول : « إني ادخرت لك في الجنة كذا وكذا » .
قال رسول الله ﷺ .

« فلا يدع لله دعوة دعا بها عبده المؤمن إلا بين به إما أن يكون
عجل به في الدنيا ، وإما أن يكون ادخر له في الآخرة ، ثم . فيقول
المؤمن في ذلك المقام :

يا ليتني لم يكن عجل له شيء من دعائه (روه البخاري ومسلم
والترمذي والنسائي وابن ماجه) .

وبشر ، ككل الصالحين ، كان كثير الدعاء ، ومن طرائفه فيما
يتعلق بالدعاء ما يرويه قائل :

« دخلت دري مرة فرأيت رجلاً حويلاً قائماً يصلي ، فراعني ذلك
لأن المفتاح كان معي ، فسمعت من صلاته ثم قال لي : لا تفرع ، أنا
أتحرك الحضر ، فسمعت به ، علمني شيئاً سغى الله به ، فقال :

قل أستعصر الله عز وجل ، وأسأله التوبة من كل ذنب تت منه
ثم رجعت إليه .

وأستغفر الله عز وجل وأتوب إليه من كل عمد أنعم عقده لله على
بسمي فمسحته ولم أوهب به

وأستعصر الله عز وجل وأتوب إليه من كل عمة أنعم بها على طول
عمرى ، واستعنت بها على مصيبي

واسأله الحمية من ذلك كله .

وينحلت بشر عن الخضر عليه السلام مرة أخرى فيقول .

رأيت الخضر فقلت ادع إلى .

قال : هون الله عليك طاعته .

قلت : زدني

قال : وسرّها عليك .

وه يس بشر الدعاء في مرضه ، وبعله ردد من دعاء أثناء مرضه

الأخير ، وكان يردد :

« إلهي رفعتني فوق قدرى ، وشهرتني بين الناس بالصلاح ولمس

صالحاً ، فأسألك بوجهك الكريم ألا تفصحني يوم الحساب »

الفضل المستاج وفاته وتقديره

وفاة بشر :

وانتهت الحياة بشر كما تنتهى بكل إنسان ، وفى ذلك يقول يحيى بن أكنم : مات بشر بن الحارث يوم الأربعاء لعشر حنون من المحرم سنة سبع وعشرين ومائتين ، وأسنده الحديث .

ويقول الإمام الشعراني :

أبو نصر بشر بن الحارث الحافى رضى الله عنه ، أصله من « مرو » وسكن بغداد ، ومات بها عاشر المحرم سنة سبع وعشرين ومائتين رضى الله عنه ، صاحب الفصيل بن عياض رضى الله عنه ، وكان عالماً ورعاً كبير الشأن أوحده وقتاً عموماً وحالاً .

ويقول صاحب كتاب « كرامات الأولياء » : مات سنة ٢٢٧ هـ ببغداد ، وأخرجت حداثته عقب صلاة الصبح ، فلم يصل إلى المقبرة إلا فى الليل ، ورؤى فى المنام فعيل له : ما فعل الله بك ؟ قال : غفر لى ولكل من شيع جازنى ، أو أحصى إلى يوم القيامة .

وقد حدث محمد بن سعد فى طبقات أهل بغداد فقال :

بشر بن الحارث ، ويكنى أبا نصر ، وكان من أبناء « خراسان » ، من أهل مرو برل بغداد ، وطلب الحديث وسمع من حماد بن زيد

وشريك ، وعد الله بن المبارك وهشيم وغيرهم سماعاً كثيراً ، ثم أقبل على العبادة ، واعتزل الناس فلم يحدث ، ومات بعدد يوم الأبعاء لإحدى عشرة ليلة حلت من شهر ربيع الأول سنة سبع وعشرين ومائتين ، وشهده خلق كثير من أهل بغداد وغيرها . ودعى باب حرب وهو ابن سب وسعين سه . وقد أخبر عبد الله بن أحمد بن حنبل ، فقال : قلت لأبي يوم مات بشر بن الحارث مات بشر فقال : رحمه الله ! لقد كان في ذكره بـ شرق ، أو فيه أنس ، ثم لبس رداءه ، وخرج وخرج معه فشهد جنازته . قال أبو عبد الرحمن عبد الله بن أحمد بن حنبل : مات بشر سنة سبع وعشرين قبل المعتصم بستة أيام .

وقال أحمد بن يونس القاضي : حدثني أبو حسان تزيادي قال سنة ست وعشرين ومائتين . فيها مات بشر بن الحارث الراهم . ويكنى أبا نصر عشية الأربعاء عشر بقين من شهر ربيع الأول ، وقد بيع من السن خمسا وسعين سنة ، وحشر الناس لجنازته . ويقول أحمد بن رهير « سمعت يحيى بن عبد الحميد الحماني يقول . رأيت أبا نصر التمار ، وعلى بن المديني في جنازة بشر الحارث يصيحان في الجارة . هـ والله شرف السبا قبل شرف الآخرة ، وذلك أن بشر بن الحارث أخرجت حارته بعد صلاة الصبح ، ولم يحصل في القبر إلا هي الليل ، وكان نهارة صائتا والنهار فيه طول ، ولم يستقر في القبر إلى العتمة »

ويقول بعض مؤرخيه :

مات سنة سبع وعشرين ومائتين ببغداد ، وأخرجت جدارته عقب
الصبح ، فلم يصل إلى المقبرة إلا في الليل ، فصار الثمار وابن المديني
يصيحان في المحارة : هدا والله شرف لدينا قبل شرف الآخرة !

ومما يروى له من الروى بعد وفاته ، أنه قيل له في المنام : ما فعل
بيث ؟ فقال عمر لى وقال : يا بشر ما عبدت على قدر ما بوهت باسمك .
وراه آخر فسأله فقال اعفر لى ، ويحعل يذكر ما به من الكرامة
فقال له : قال لك شيئاً ؟

قال : نعم قال . يا بشر ما استحييت منى . ؟ تخاف ذلك الخوف
على نفسى لى !!

وقال القاسم بن منه : رأيت بشر بن الحارث فى النوم فقلت :
ما فعل الله بك يا بشر ؟

قال : قد عصى ، وقال لى يا بشر قد عصرت لك ، ولكل من
تبع حازلك ، ففقت : يرب ، ولكل من حصى !
قال : ولكل من أحبك إلى يوم القيامة !! !

تقديره :

نقد قدر كبار العلماء بشر بن الحارث ، وكان فى مقدمتهم الإمام
أحمد بن حنبل ، وقد سبق أن تحدثنا عن تقديره ، وسبع من تقدير الناس
له أن بعضهم كان يذهب إليه مع أنائه ليستفيد الأبناء منه نصيحة
وإرشاداً ، من ذلك ما روه إبراهيم الحزبى قال

حسنى أبى إلى بشر بن الحارث ، فقال : يا أبا نصر - أبى هذا
مشتهر بكتابة الحديث والعلم .

فقال لى : يا سى هذا العلم يسغى أن يعمل به ، فإن لم يعمل به
كله فمس كل مائتين حمسة ، مثل ركاة الدرهم .

وقال له أبى : أبا نصر تلتصق له .

فقال دعاؤك له أبلغ ، دعاء الوالد لولده كدعاء السبى لأمه . !

قال إبراهيم : فاستحليت كلامه ، فاستحسته ، فإذا أنا مار إلى
صلاة الجمعة ، فإذا بشر يصلى فى قبة الشعر ، ففمت وراءه أركع
إلى أن يؤذن بالأذان .

فقام رجل رث الحال والهينة ، فقال : يا قوم احذروا أن أكون
صادقاً ، وليس مع الاصطوار احتبار ، ولا يسع لسكوت عبد العدم ،
ولا السؤال مع الوجود ، ولا فاقة رحمكم الله

قال : فرأيت بشراً أعطاه قطعة دائق .

قال إبراهيم : ففمت إليه فأعطيته درهماً ، ففمت أعطى القطعة
قار : لا أعل .

ففمت : هذان درهمان - قار . وكان معى عشرة دراهم صحاح .

قلت : هذه عشرة دراهم ، فقال لى :

يا هذا رأى شىء رعتك فى دائق تندر فيه عشرة صحاح ؟

قال : قلت : هذا رجل صالح !

قال فقال لي : فأنا في معروف هذا أرغب ، ولست استبدل
بالمعم نقما ، وإلى أن آكل هذه مروح عاجل ، أو منية قاضية !
فقلت : يا شيخ دعوة !

فقلت لي : أحيا الله قبلك ، ولا أمانك حتى يميت جسمك ،
وجعلك ممن يشتري نفسه بكل شيء ، ولا يبيعها بشيء ! وقد أعجب
إبراهيم الحربي هذا من بين من أعجب بهم - بيشر ، ولذلك
يقول :

قد رأيت رجالات الدنيا لم أر مثل ثلاثة

رأيت أحمد بن حنبل ، وتعجز النساء أن تمد منه !

ورأيت بشر بن الحارث من قرنه إلى قدمه مملوءا عقلاً !

ورأيت أبا عبيد القاسم بن سلافة كأنه حبل نفخ فيه علم !

قال عمر بن أحمد : إبراهيم رأى الثلاثة ولم يحدث إلا عن أحمد ،
وبلغ من تقدير إبراهيم الحربي أن قال هذه الكميات الحميلة ، وهذا
التقدير الكريم ، فيقول

« ما خرجت بغداد أتم عقلاً ، ولا أحفظ للسان من بشري
الحارث ، كأن في كل شعرة منه عقل ، وطيء لباس عقه خمسين
مئة ما عرف له غيبة لمسلم ، لو قسم عقله على أهل بغداد صاروا
عقلاء ، وما نقص من عقله شيء !

ويقول أحمد بن علي الدمشقي : قال لي أبو عبد الله بن الجلاء .

رأيت ذا النون وكانت له العارة ،
ورأيت سهلاً وكانت له الإشارة ،
ورأيت بشر بن الحارث وكاب له الورع !
فقل له إلى من كنت تميل ؟
قال : بشر بن الحارث أستاذنا .

ويروى ابن عساكر عن عبد الوهاب قوله : ما رأيت زهد من
معروف ، ولا أحشع من وكيع ، ولا أقدر على ترك سهوه من بشر بن
الحارث ، ولا أنقى لربه عز وجل في لسانه من إبراهيم بن أبي نعيم .
وبالرغم من كبرياء الملوك وعصرتهم ، فإن يحيى بن أكرم يقول
قال لي المؤمن :

م يبق في هذه الكورة (السجدة) أحد يسبحها منه غير هذا الشيخ ،
يعنى بشر بن الحارث .

وأصحاب الطبقات على وجه العموم يذكرونه بتقدير عظيم ،
فصاحب الحمية يقول : « ومنهم (من الصوفية) من حياه الحق بحرين
القواتح ، وحماه عن ويل الفواحش . أبو بشر بن حارث الخافى المكتفى
بكمائة الكافي اكتفى فاشقى .

وقيل إن التصوف الاكتفاء للاعتلاء ، والاشتفاء من الابتلاء »

ويقول صاحب الكواكب :

« كان كبير لشأن ، عظيم المقدر ، عال المراتب ، ربيع السار ، نصف
الإشارة ، عذب الكلام ، صلق العبارة ، عديم لصير زهداً وورعاً ، وصلاًحاً » .

وقال اسأوى : « كان سيد الأولياء العارفين هي زمانه » .
ويقل هي « الفتوحات المكية » عن بعض الصالحين أنه لقي الحضر
عليه السلام .

فقال له : ما تقول في الشافعي ؟

قال : من الأوتاد .

قال : فأحمد بن حنبل ؟

قال : صديق .

قال : فبشر الحافى ؟

قال : ما ترك بعده مثله !

أما أسر في هذا التقدير ، فقد تحدث عنه بشر من حلال رؤية
رآها ، يقول . عبد الرحمن بن أبي حاتم : بلغني أن بشر بن أخارث
الحافى قال .

رأيت النبي ﷺ هي اسم فقال لي يا بشر أمدري لم رجعك الله
من بين أقرانت ؟

قلت : لا يا رسول الله !

قال : باتباعك لستى ، وخدمتك للصالحين ، وصيحتك لإخوانك ،
وعبك لأصحابي ، وأهل بيى هو لدى بلغت منازل الأبرار !
وما من مثك في أن هذه الصفات تبلى الإنسان منازل الأبرار ،
وأن تباع سنة رسول الله ﷺ ، ترفع الإنسان بين أقرانه ، وتصل به
إلى عليين ، وإلى مرضاة الله سبحانه في الدنيا والآخرة

* * *

الخاتمة

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام
على أشرف المرسلين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ، ومن اتبع هديه
إلى يوم الدين . وبعد :

إن هذه الخاتمة يمكن أن تكون خاتمة لكل كتاب من كتب
التصوف التي ألفتها ، يستوى في ذلك أن يكون عن موضوع
التصوف ، أو عن شخصية من شخصيات الصوفية :

ذلك أنها توضح صفة الصوفية بالشرعية ، أو توضح مذهبهم في
سلوكهم ، وما كان مذهب سلوكهم في يوم من الأيام إلا التزام الشريعة .
وإذا أبانت هذه الخاتمة عن مذهب سلوكهم في الحياة فإنها تعتبر
رداً على كل المفتريات ضد الصوفية .

وما من شك في أن مسألة التزام الشريعة مسألة أثارت - مع بدهة
وجوبها - جدلاً من زمن مخرق في القدم :

فالإمام الجنيد مثلاً - وقد عاش في القرن الثالث الهجري ،
يقول له سائل ذاكراً المعرفة : قائلاً :

« أهل المعرفة بالله يصلون إلى ترك الحركات من باب البر والتقوى
إلى الله تعالى » ، فيقول له الجنيد رضي الله عنه :

إن هذا قول قوم تكلموا بإسقاط الأعمال ، وهذا عندى عظيمة ،
وانذى يسرق ويرنى أحسن حالاً من الذى يقول هذا ، وإن لعارفين
بالله أحدوا الأعمال عن الله : أى عن الكتب والسنة ، وابه رجعوا فيها..
ولو بقيت ألف عام لم أنقص من أعمال البر ذرة إلا أن يحال بهي دونها.
أما أبو ريد رضى الله عنه - وقد كان من قبل الجعيد ، فإن له في
هذا الاتجاه بعض حوادث التي تدل على تمسك شديد بالشريعة ، وعلى
مدى الدقة في شعوره من زارية صيته بالله سبحانه وتعالى ،
قال مرة لأحد جلسائه :

قم بنا حتى سطر إلى هـ الرجل الذى قد شهر نفسه بالولاية - وكان
رجلاً مشهوراً بالرهـ - فمضيا إليه ، فمما خرج من بيته ودخل للمسجد
رمى ببصاقة تحاه لقيلة ، فنصرف أبو ريد وقال :

هـ غير مأمول على أدب من اداب رسول الله ﷺ فكيف يكون
مأموناً على ما يدعى ؟

ولقد تكلم أبو زيد عن المقياس لدى يسعى أن يكون أساساً لتقدير
أهل الله .

به ليس مقياس حرق العادات ، فقد تحرق العادات من ليس لهم
عدم راسحة هي محال لعبودية ، يقول أبو ريد :

« لو بضرتم إلى رجل أعطى من الكرامات حتى يرقى في أهواء
علا تغترو به ، (حتى) تطرؤا كيف تحدوه عند الأمر والنهى ،
وحفظ الحدود ، وأداء الشريعة » .

ومن شعار أبي يزيد هي صلته بالله ما اشتهر عنه مما رواه من قول
رسول الله ﷺ

« إن من ضعف اليقين أن ترعى لاس بسخط الله ، وأن تحملهم
على رزق الله ، وأن تدمهم على ما م يؤثك الله . إن رزق الله لا يحره
حرص حريص ، ولا يرده كره كاره . إن الله يحكمه وجلاله جعل
الروح والفرح في اليقين والرضا ، وجعل الهم والحزن في الشك
والسخط . »

ومن طرائف أبي يزيد أنه أدن مرة ثم أراد أن يقيم ، فنظر في
الصف من أجل تسويته ، فرأى رجلاً عليه أثر سحر ، فتقدم إليه ،
فكلمه بشيء ، فقام الرجل وخرج من المسجد ، فسأله بعض من
حضر ، فقال الرجل :

كنت في السحر قدم أجد الماء فتيممت وسبت ودخلت المسجد ،
فقال أبو يزيد لا يجوز التيمم في الحصر ، فذكرت ذلك وخرجت

وموافق الإمام العزالي من هذا الموصوع معروفة ، وهو يتحدث
عن الأسباب التي تدعو بعض الناس إلى التهاون أو الكسل في تطبيق
الشريعة ، فبعض الناس - حسماً يقول الإمام العزالي - يرغم أنه قد
بلغ مبلغاً ترقى عن الحاجة إلى العبادة .

وبعض من قرأ الفلسفة يقول : - حسماً ذكر الإمام العزالي .

لقد قرأت علم الفلسفة ، وأدركت حقيقة السوء ، وأن حاصيها
يرجع إلى الحكمة والمصلحة ، وأن المصنوع من تعبداتها صيغ عوام

الحلق ، وتقييدهم عن انتقاتل والتنازع والاسترسال في الشهوات ،
فما أنا من العوام الجاهل حتى أدخل في حجر الكيف ، وإنما أنا
من الحكماء : اتبع الحكمة ، وأنا بصير بها ، مستعن فيها عن
التقليد .

ويرد الإمام العزالي على هؤلاء ردودا كثيرة مختلفة ، وفي كتب
عديدة ، وأحد ردوده في ذلك ما ذكره من قوله :

واعلم أن سالك سبيل الله تعالى قليل ، والمدعى فيه كثير ، ونحن
نعرفك علامة له :

ودلت أن تكون جميع أفعاله الاختيارية مورونة بمران الشرع ،
موقوفة على توقيعاته إرادا وإصدارا ، وقادما وإحجما ، إذ لا يمكن
سلوك هذا السبيل إلا بعد التيسر بمكارم الشريعة كلها ، ولا يصل
فيه إلا من واطب على جملة النوافل ، فكيف يصل إليه من أهمل
العرائض ؟

فإن قلت : فهل تنتهي مرتبة السالك إلى أحد الذي يسقط عنه فيه
بعض وصفات العبادات ، ولا يضره بعض المخطورات ؟

وأقول لك . اعلم أن هذا عين العرور ، وأن المحققين قالوا .

« لو رأيت إسما يظير في اخواء ، ويمشي على الماء ، وهو يتعاطى
أمرا يخالف الشرع فاعلم أنه شيطان » .

وهذا الاتجاه إنما هو اتجاه الصوفية على وجه العموم ، إنهم يسيرون على نهج رسول الله ﷺ ، فهو أسوتهم ، وهو قدوتهم ، وقد كان رسول الله ﷺ على أكمل ما يكون في هذا الجانب .

لقد كان خلقه القرآن ، ولأن الحق القرآني هو الذي يقرب إلى الله سبحانه ، نهج الصوفية هذا المصحح ، وتحدث عنهم في هذا النهج كثير من متكلمي أهل السنة . ومن فقهاءهم

فهاهو ذا الإمام الكامل ، الفقيه الأصولي المصنف الإسفراييني ، صاحب كتاب « التبصير في الدين » ، وهو من أئمة أهل السنة ، امعين أشد عناية بالرد على كل من يخالف مذهب أهل السنة .

إنه يذكر ما يمتاز به أهل السنة عن غيرهم من الخوارج والروافض والقدرية ، فيذكر أن سادس ما امتاز به أهل السنة هو :

علم التصوف والإشارات ، وما لهم فيها من الدقائق والحقائق ، م يكن قط لأحد من « أهل البدعة » فيه حظ ، بل كانوا محرومين من الراحة والحلاوة ، والسكينة والطمأنينة .

وقد ذكر أبو عبد الرحمن السلمي ، من مشايخهم قريباً من ألف ، وجمع إشاراتهم وأحاديثهم ، ولم يوجد في حمتهم قط من يسب إلى شيء من بدع القدرية ، والروافض والحوارج .

وكيف يتصور فيهم من هؤلاء ، وكلاهم يدور على التسليم والتصويص ، والتبري من النفس ، واشتوحيد بالخلق والمشيمة ؟ وأهل

ابتدع يسبون الفعل والمشية ، والحلق والتقدير ، إلى أنفسهم ، وذلك
بحجز عن عمد عليه أهل حقائق من تسليم والتوحيد .
ونحب أن نزيد الأمر وضوحاً فنقول .

إن التصوف طريق وموضوع .

أما من حيث الطريق فيقول الإمام العراقي . إن الطريق إلى ذلك
إما هو تقديم لمجاهدة ، ومحو الصفات المذمومة وقطع العلائق كلها ،
والإقبال بكنه الهمة على الله تعالى ، ومهما حصل ذلك كان الله هو
المتولى لقلب عبده ، ولتكفل به بتوحيده بأنوار العلم

وإذا تولى الله أمر القلب فاصت عليه الرحمة ، وأشرق النور في
القلب ، وشرح الصدر ، ونكشف له سر الملكوت ، وانقشع عن
وجه القلب حجاب الغرّة يلفظ الرحمة ، وتلاأت فيه حقائق الأمور
الإلهية ، فليس على العبد إلا الاستعداد بالصمعية المحردة ، وإحصار
اهمة ، مع الإرادة الصادقة ، وتتعطش التام ، والترصد بدوام الانتظار
ما يفتحه الله تعالى من الرحمة .

وعن هذا الطريق يقول ابن خلدون :

وفد كان الصحابة رضي الله عنهم على مثل هذه المجاهدة ، وكان
حظهم من هذه الكرامات أو من الحظوظ لكهم لم يقع هم بها عناية .
وبني فصائل أبي بكر وعمر وعثمان وعلى رضي الله عنهم كثير
مها ، وبعهم في ذلك أهل الطريقة ممن اشتملت رسالة انقشيري على
ذكرهم . ومن تبع طريقتهم من بعدهم .

هذا فيما يتعلق بالطريق ،

أما فيما يتعلق بالموضوع والشعور والأحوال فإن الصوفية - على وجه العموم - سهوا في صور حاسمة إلى وجوب الترام الشريعة ، يقول أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه :

« من دعا إلى الله تعالى بغير ما دعا به رسول الله ﷺ فهو بدعي » .

ويقول : « إذا لم يوطب الفقير على حضور الصلوات الخمس في الجماعة فلا تقرأ » .

ومن أجعل كلماته في هذا قوله :

ما ثم كرامة أعظم من كرامة الإيمان ، ومتابعة السنة ، فمن أعطيهما وجعل يشاق إلى غيرهما فهو عبد مفسر كذاب ، أو ذو خطأ في العلم والعمل بالصواب ، كمن أكرم مشهود الملتك على نعت الرضا ، فجعل يشاق إلى مياسة لدواب ، وخضع الرضا .

وكل الصوفية يهجون هذا النهج ، يقول ذو النون :

« من علامات المحب لله متابعه حبيب الله في أخلاقه وأفعاله وأمره ونهيه » .

ويقول السري :

« قليل في سنة خير من كثير مع بدعة ، كيف يقل عمل مع التقوى » ؟

ويقول : « لن يكمل رجل حتى يؤثر ديه على شهوته ، ولن يهلك حتى يؤثر شهوته على ديه » .

ويقول المحاسبي :

« من صحح باطنه بالمراقبة والإخلاص ، زين الله ظاهره بالمجاهدة
واتباع السنة » .

ويقول أبو سليمان الداراني :

« ربما يقع في قلبى النكته من نكت القوم أياماً فلا أقبل إلا بشاهدين
عدين : الكتاب والسنة » .

والواقع أن المثل الأعلى للصوفية على بكرة أبيهم إنما هو رسول الله
ﷺ ، وهم يحاولون باستمرار أن ينهجوا نهجه ، وأن يسيروا على
منواله ، فهو إمامهم الأسنى فى كل ما يأتون وما يدعون ، وهم يتابعونه
مهتدين فى ذلك بقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ
الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ۝ ﴾^(١) .

وبعد : فقد بينا فيما سبق أن الطريق إلى الله هو التحقق بالعبودية ،
وقد سار الصوفية فى هذا الطريق فأثمر لهم ثماراً سامية :

﴿ وَمَن يَتَصَبَّحْ بِاللَّهِ فَقَدْ هَدَىٰ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝ ﴾^(٢) .

(١) الأحزاب : ٢١ .

(٢) آل عمران : ١١١ .

فهرس الكتاب

صفحة	
٣	مقدمة
١١	الفصل الأول : حياته
٢٥	الفصل الثاني : العالم
٥٥	الفصل الثالث : مواعظ وحكم
٧١	الفصل الرابع : الطريق
١٠٧	الفصل الخامس : بشر والكرامات
١١٧	الفصل السادس : الدعاء
١٢٧	الفصل السابع : وفاته وتقديره
١٣٥	الخاتمة

١٩٩٤ / ٩٥٥٢	رقم الإيداع
ISBN 977-02-4761-8	الترقيم الدولي

١ / ٩٣ / ٦٠

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.ا)

بشر بن الحارث الحافى

صاحب هذه الترجمة من الشخصيات الشهيرة في عالم
التصوف ، فهو يعد من كبار الزهاد الصالحين ، وأعيان
الأتقياء الورعين ، ومن رجال الحديث الثقات .
لقد نشأ بشر بن الحارث نشأة مُتَرَفِّة ، ولكن الله
سبحانه وتعالى أعده لدرجة منزلة كريمة ، وهباً له الوصول
إليها ، ومن ثم كانت الانبعاثة التي طهرته وجعلته يخرج
من ذلوره كيوم ولدته أمه ، واتجه بصدق إلى طريق الحق ،
وإلى مرضاة الله ، فبدأ مُتَعَلِّماً مُتَعَلِّماً ، ثم انتهى مُعَلِّماً
ومُرشدًا .